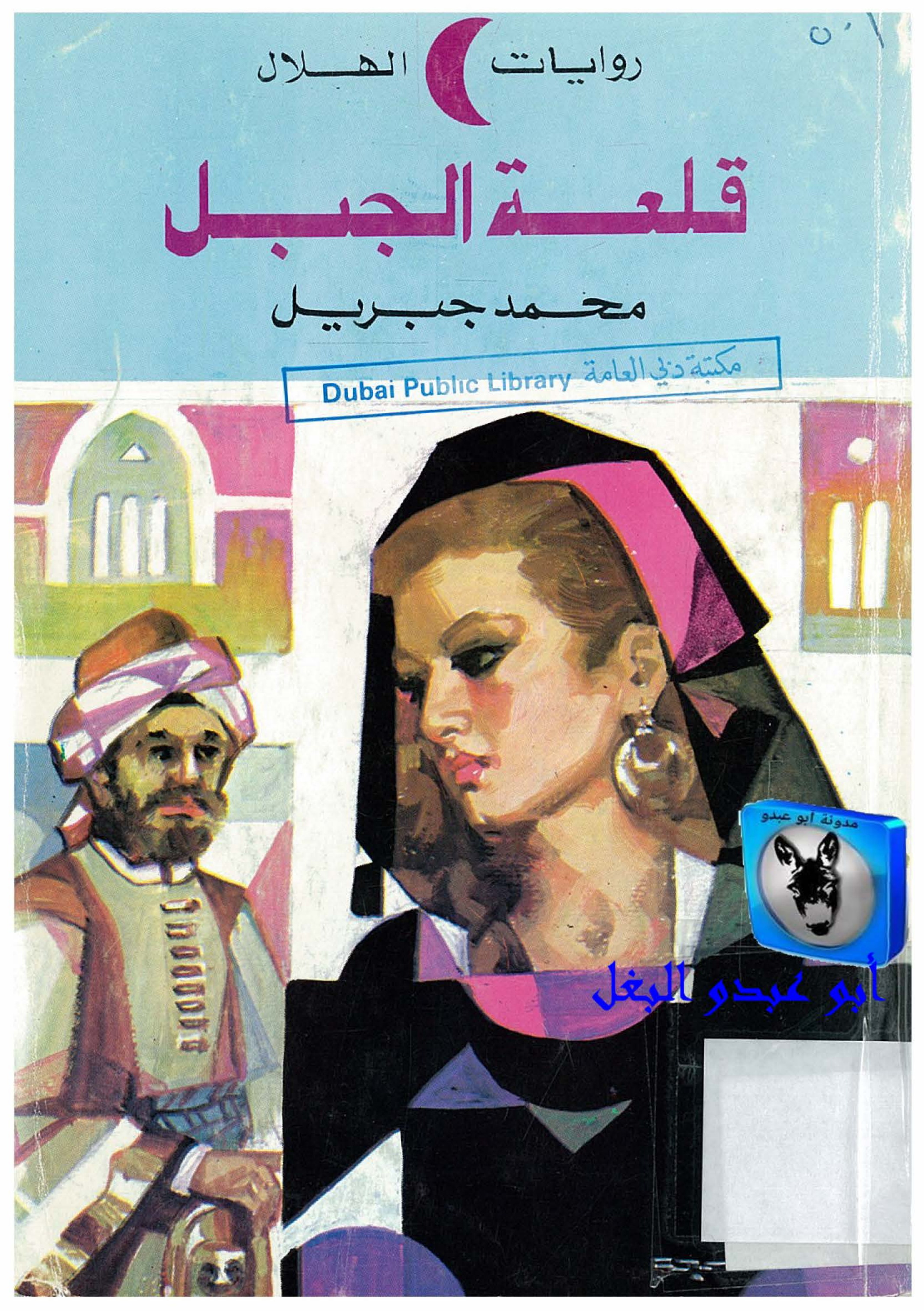

روايات الهلال
قلعة الجبل
محمد جبريل
مكتبة دبي العامة
Dubai Public Library
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٥٠٦ فبراير ١٩٩١
رجب ١٤١١ هـ
No. 506 FE. 1991

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرون جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسةدار الهلال ويرجى عدم أرسال عملات نقدية بالبريد .

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس : FAX 3625469

اسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشا

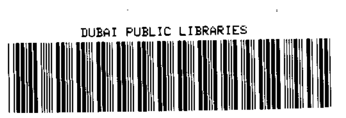
الاردن ١٥٠٠ فلس ، الكويت ، ١٥٠٠ فلس ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريال ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الأمارات العربية ١٠ درهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة والضفة والقدس ١,٥ دولار ، انجلترا ١,٥ جك .. المغرب ٢٠ درهما

اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة ـ ص. ب رقم 13079٢١٨٣٣ ـ تليفون ـ ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط



الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين

قلعة الجبل

تأليف

محمد جبريل

دار الهلال

الرسوم الداخلية مهداة من
الفنان : سليمان عبدالمحسن

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة ، بالعرمة التى جمعت نفعا وتحسينا ، وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، أبو المظفر يوسف بن ايوب ، محيى دولة امير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده ، الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل ، أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته ، قراقوش بن عبد المالكى الناصرى ، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة ..

الملك لله » .

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله الـذى أنزل الكتـاب المبين ، على أشرف الأنبيـاء والمرسلين • نحمده على نعمائه ، ونشكره على منته وعطائه ، ونشـهد أن لا اله الا الله وحـده لا شريك له ، وأن محمـدا عبـده ورسوله وشفيع أمته يوم الدين • •

أما بعد ••

فاعلم أني لا أنزع الى الخيـال فيمـا أروى من أخبار السـلاطين والملـوك والأمراء وأكابر النـاس • انهم القـدوة والريادة والعمـل الصالح ، النجوم العالية فى سماء حيـاتنا ، الماضى والحاضر والأمل المرتجى • من العيب أن نضعهم فى غير مكانهم ، أو نسىء الى سيرهم بالشـائعات ، وعدم التثبت • ما جـرى أرويه بمنتهى الصدق • أسأل المعاصرين ، وأفتش فى المصادر ، وأتنقل بين الأماكن ، مهمـا نأت (ربما تنقلت بين المدن والأمصار ، وقطعت المسافات ، للتدقيق فى واقعة أو مقولة) أغربل الروايات العديدة ، فلا أبقى سوى الذى يبلغ الاجماع ، أو يقرب منه ••

أنا لم أرزق التمثـل بين يدى أساس الدولة خليل بن الحـاج أحمد ، والتحـلى ـ فى حيـاته ـ بصـحبته المنيفة • مع ذلك ، فقد أشفقت على سـيرته من تشويه الموتورين لها ، ومؤاخذاتهم المعيبة عليها ، والباسها ثوب الفجاجة • معظم الروايات صحيحة ، تتحدث عما جرى بالفعل ، ولكن البعض أدخل فيها من تلقاء نفسه ، فبدل وحور ، وصـارت أقرب الى المزاعم • أضاف اليها الغرض ، فبـدا الكذب حقيقة ، عن حكاية السلطان أساس الدين خليل ، وعائشـة بنت عبد الرحمن القفاص •• فقد تتبعت حكاية السلطان وعائشـة من أولها الى آخرها ، وتفهمت ـ جهدى ـ باطنها وظاهرها ، وما خفى عن الآخرين • داخلها زيف واختلاق وحذف واضافات وتشوهات ، أساءت الى الحـكاية بالكلية • قلبت ، وغربلت ، وتقصيت المصادر

والروايات المختلفة ، دون اعتبار لسبب ما ، الا الحقيقة وحدها ● وهو ما حاولته في الصفحات التالية ● ان اقتربت من الحقيقة فذلك توفيق من الله ، رافد في محيط نعمائه ، وان جانبني الصواب ، فكل ابن آدم خطاء ●●

(فصل في نزول السلطان خليل من قلعة الجبل ، ورؤيته لعائشة)

لم يكن في بال عائشة بنت عبد الرحمن ، القفاص بالشيخونية ، أنها ستهجر حياة ـ برغم يسرها ـ لا تصل الى النعيم الذى أسفر لها عن ملامحه ● التفت بملاءتها ، وغادرت البيت في حدرة الحنة ، قبل أن تنفذ أشعة الشمس من ثقوب القيساريات ● مضت الى شارع الصليبة ، تتجاهل النظرات التى تكتفى ـ لظروف الجيرة ـ بالتطلع الصامت ● لكثرة ما أطرى أهلها والجيران جمالها ، أيقنت أنها ـ بالفعل ـ في نهاية الحسن ●

نزل السلطان من قلعة الجبل في موكب هائل ، يتقدمه الطبول والأبواق والبيارق والأعلام ، وأكابر أهل العمامة وأهل السيف والوزراء والأمراء والقضاة والسادة الأشراف والمؤدبون والعلماء والشعراء وأماثل الكتاب ● تسير من خلفه المماليك والحجاب ، وخاصة السلطان والغلمان ، يترجل كل المارين لقدوم الموكب ، يلزمون جانبي الطريق ، تطلق النساء الزغاريد ، ويحنى الرجال رءوسهم احتراما ، ويأمر السلطان أجناده برفق السير ، ليراه الناس ، ويبادلهم السلام ●●

كان يحرص ـ منذ أذن الله له بتولى السلطنة ـ أن يركب ـ بين وقت قصير وآخر ـ ركوبا ظاهرا للناس كافة ● يخترق الشارع الأعظم ، بين باب زويلة في الجنوب ، وباب الفتوح في الشمال ، وكثيرا ما اتجه الى شوارع أخرى ● رفض المواقيت المحددة لظهور وجه السلطان ، فلم يقتصر نزوله من القلعة على مناسبات بعينها ● أهمل المشقة التى يفرضها خروج الموكب من قلعة الجبل ، وعودته اليها ● همه أن ينزل بنفسه الى أولاد الناس والعوام ، لا تحجبه عنهم أسوار القلعة ، يطمئن ـ في نظرات الأعين ـ الى سير الأمور ،



واعتدال الأحوال ويسرها ، فى الحارات والرحبات والشوارع التى يمر بها موكبه ..

العساكر كلها فى خدمته ، مشـاة من قلعة الجبل ، الى العودة بسوق الخيل ، أو الميدان الأسود كما جرت تسميته من القديم ..

رفض تحذيرات الخاصة وكبار المعـاونين : توالى ظهور الملك للعامة يجرئهم عليه ، يهون أمره لديهم ، يزيل جدار المهـابة بينهم وبينه ..

لم يكن يحدد موعدا لنزول الموكب . انما هى أوامر آنية ، يهرع الوزراء والأمراء لتلبيتهـا . لكثرة ما فاجأهم ، فقد كان ما يتعلـق بالموكب السلطانى جاهزا على الدوام . حتى كبار الموظفين فى دورهم خارج القلعة ، كانوا يلحقون بالموكب من قبل أن يغادر باب السر ..

كان السلطان يرد تحية الأهالى على جانبى الطريق ، عندما أعاد النظر الى الوجه الذى أحكمت حوله الملاءة ، فتأكدت ملامحه . القلعة يصعد اليها ويهبط منها ، المئات من الوجوه الحســان ، يحيـا فى داخلها بارعات الجمال من كل الاجنـاس .. لـكن الذى أعاد نظر السلطان الى عائشة ـ كما روى ، فيما بعد ، الخـاصة والمقربون ـ وجه مايكون مثله الا فى الجنة ..

لم تعد عائشة ـ حين عاد السلطان الى القصر ـ وجها بين آلاف الوجوه التى تطلعت الى السلطان ، فى نزوله من القلعة ، وصـعوده اليها . شغله ، وتحدث عنه الى خاصته ، أفاض فى وصف جمالها ، الـذى لم ير أحســن منه ، ولا مثله . وقبـل أن يأتى المسـاء ، كان الجنود قد أجادوا الانتشار فى الشيخونية ، يتطلعون الى كل وجه ، يستعيدون الملامح التى حددها لهم أمير المؤمنين ، من رواية السلطان. أخـذوا بالحيطة ، فنزعوا النقـاب عمـن أخفت به وجههـا ، ربمـا استبدلت النقاب بالملاءة ..

لاحظ النائب الكافل والأتابك والأمراء المقدمون وحملة الأقلام وأمراء الطبلخاناة ، عندما تصدر السلطان مجلســه فى مساء اليوم نفسه ، أن التغير قد كسـا وجهه ، فهو لا يتحـدث ، واذا أنصت فبغير اهتمام ، واذا أصدر أمرا رافقته القسوة . ولم يعرف أقرب الناس اليه ، فى ماذا يفكر ، ولا ماذا يدبر ، أو يريد أن يفعل ..

علا صوت السلطان بغير ما ألفه المحيطون من مألوف هدوئه :

ـ أريد أن تأتوا بكل من يسكن الشيخونية ، أو له فيها دكان ، أو يتردد عليها لمصلحة ··

تبادلوا نظرات الحيرة ··

أضاف السلطان وهو يبدى التململ فى جلسته :

ـ لن اغادر مكانى فى برج القلعة قبل أن يأتى كل من أمرت باحضارهم ··

(فصل)

تقضت الأيام دون أن يعثر الجنود لعائشة على أثر · فص ملح وذاب · اقتيدت العشرات من النسوة والفتيات الى القلعة ، يطل عليهن السلطان من السور الشرقى ، يتأكد من الوجوه التى استندت ـ برغمها ـ الى أكف الجنود ، يشير بظهر يده ، فيخلى الجنود سبيل الجميع · يصعدون ـ فى اليوم نفسه ـ بجماعات وجماعات من النسوة اللائى تناقصت أعدادهن · راعهن ـ أو راع الآباء والأزواج ـ صعود الجند بهن الى القلعة ، واعادتهن منها · أمرن ، فلزمن البيوت ··

زاد نزول السلطان من القلعة ، وطلوعه اليها ، لم يعد ركوبه يقتصر على المناسبات التى الف فيها الناس ذلك : فتح الخليج ، تخليق المقياس ، صلاة العيد ، صلاة الجمع الثلاث من شهر رمضان · صار يركب بلا مناسبة ، فيقف الناس على الجانبين · الوضع نفسه الذى التقطت فيه عينه ما رأت ، وأودعته ذاكرته · وربما نزل فى عدد من حجابه ومماليكه ، يعرف الناس أن السلطان يمر ، فيخرجون لملاقاته · تلتقط عينه الوجه الذى شغله العثور عليه · وربما نزل فى قلة من خاصته ، يتطلع ، ويستعيد الملامح ··

شاهد آلاف الوجوه · حدق ، وتأمل ، وخطف البصر · تأمل القسمات : تبسم وتحزن وتضحك وتخشى · وجه الفتاة الواقفة ـ بحركته الساكنة ـ بين الآلاف · عبرته عينه ، فالتقطته ، أودعته ذهنه ، فلم يبرحه · لحظة كالومضة ، لا صلة لها بما قبل ولا بعد ، ولكنها اقتطعت نفسها من الزمان والمكان ، وظلت فى داخله زمانا متصلا ، حل فى وجدانه وذهنه ، يلازمه فى دور الحريم ، وهو يزور

طباق القلعة ، وهو يستقبل الوزراء والأمراء ، وهو يرسم الأحكام ، وهو يطل من سور القلعة على مصر والقاهرة ، يسأل نفسه ، وان لم يحادث الآخرين : أين تقيم هذه التى نقلت عينه وجهها من الطريق الى نفسه ؟! ..

لم يكن فى ملامح الوجه التى عبرها ، ما يدفع الى المقارنة مع أخريات فى دور الحريم والاسطبل السلطانى وداخل القصور ، ولكنه اجتذبه جميعا . زاد انشغاله به ، وتفكيره فيه . لزم خياله ، والتصق به ، لجماله الباهر ، كأنه البدر ليلة التمام .. ولأسباب أخرى لم يستطع تبينها ، وان لزم الوجه ذاكرته .

(فصل فى نشأة السلطان خليل)

فاعلم أن نشأة السلطان أساس الدولة خليل بن الحاج أحمد ، تبدو ـ فى المصادر التاريخية ـ غامضة ، تتحيفها قتامات وظلال ، تعانى من التناقض والتشتت ..

قيل ان السلطان أساس الدولة ولد ونشأ فى آسيا الصغرى . فلما بلغ اليفاعة باعه أبواه الى نخاس ، لاحظ نباهته ، فاحتفظ به لنفسه ، ولم يبعه . وحين مات الرجل ، فان خليل باشر عمله بدلا منه ، واستطاع ـ بدهائه وأمواله ـ أن يشترى الذمم والضمائر ، حتى دانت له الأمور ، ووجد السبيل ممهدا لحكم مصر ، فارتقاه ..

وقيل انه كان قبيح السيرة فى رعيته ، ظالما لهم ، قاسيا فى قوانينه ومراسيمه . وعابت عليه الأقلام المؤرخة ميله الى الشدة والعنف ، فهو يسوس الرعية بأسلوب النخاس ، لا يرعى ذمة ولا ضميرا ، ولا تأخذه شفقة ولا رحمة . وروى عنه ما تقشعر منه الأبدان ، وتنكره القلوب ..

تلك جميعها مزاعم ، ربما أملاها الغرض . فلا أحد رأى بعينه ، أو سمع بأذنه ، أو شارك فيما حدث . انما هى روايات منقولة ، أضاف كل واحد مما عنده ، فتحورت ، وتضخمت ، ووصلت الينا بصورتها الشوهاء ، الحالية ..

لم يكن السلطان خليل ـ فيما ظهر الينا من أمره ـ غامض الأصل، ولا مغمور النسب . جركسى نسبة الى جركس . من الجنس الأبيض

القوقازى • يعـد ـ فى رواية ـ من الآريين ، وفى رواية أخرى من الغسـاسنة • وروايات تؤكد أنهم من بقـايا الحيثيين حينـا ، ومن شعوب الترك حينـا ثانيا ، ومن بنى عامر من قريش حينـا ثالثا ، والله أعلم ••

مع ذلك ، فان فى الجراكسة الكثير من صـفات : الشـجاعة ، وحب الفروسـية ، والغيـرة على النسـاء ، وحسن القيـام بواجب الضيافة ، وعدم رد الطلب ، واغاثة الملهوف ، وحدة الطبع ، وسرعة الغضب ، واسـتمرار القتـال ـ متى بدأ ـ حتى يفنى أحد الطرفين صاحبه ، أو يفنى الطرفان معا • وتلك جميعهـا ـ كمـا نعلم ـ من صفات العرب ••

من عادات الجراكسة ، أنهم يسمون الوليد باسم أول طارق عند ولادته ، فسمى خليلا ، حيث طرق الغرفة عند الولادة صديق لوالده اسمه خليل • وأضـاف الى اسـمه ـ بعد الاشتغال بالحكم ـ لقب أساس الدولة ، فصار أساس الدولة خليل بن الحاج أحمد ••

أما والد خليل ، فقد كان ـ قبـل أن ينجبه ـ نخاسـا ، يأتى بالرقيـق من بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغـول والأروام والأكراد والفرس ، وبقاع آسيا الصغرى والقرم والجزيرة ، وجنوة، ومن بقايا الانتصارات التى تحققها الجيوش المملوكية خارج الحدود، يقضى أعواما ، أو أشـهرا ، فى قصره بالخرنفش ، ويعـود ، ليأتى برقيق جديد • لم يكن خليل رقيقا اذن ، انما ورث مهنة النخاسة عن ابيه الذى أتقن العربية ، فتعلمهـا منه • كمـا تعـلم الفروسية وفنون الحرب والرماحة ••

(فصـل فى صـعود خليـل بن الحاج احمد ، الى منصب السلطان)

لم يثب السلطان أساس الدولة الى السلطنة ، انما دانت له ، فركبها ••

أما كيف كان ذلك ، فقد بز خليل بن الحاج احمد أقرانه بأنه بدأ حياته ـ كما رويت لك ـ نخاسـا ، وليس مملوكا • لم يـكن ملكا خاصا لسلطان ، أو أهداه له بعض أقاربه أو خاصته ، ولم يرثه سلطان ليعتقه ، انما عاش ـ منذ اليفاعة ـ يتـاجر فى الرقيـق ،

يصبحون ـ فيما بعد ـ من المماليك ، أو أنهم هم المماليك • يسوسون البلاد ، ويذودون عنها ، ويحمون ثغورها وحياضها ••

تجارة الرقيق ـ كما تعلم ـ كانت أمرا مشهودا ورائجا • وكان اقتناء الرقيق سهلا ، حتى في أسواق القاهرة • لا حاجة الى الاستجلاب من بلاد الترك والشركس والمغول والأروام والأرمن والأكراد والفرس والهند وغيرها من بقاع آسيا ، وبلاد وسط وغرب افريقيا • عرض في أسواق القاهرة ـ خان مسرور ، دار البركة ، فندق الحجر ، خان جعفر ، وكالة كشك ـ رقيق من بلاد الفرنجة ، يدينون بغير الاسلام ••

لم تكن النخاسة تهمة اذن ، ولا هي مما يؤاخذ أو يعاقب عليه • باع خليل الرقيق الأبيض والأسود ، الغلمان والجوارى والخدم والحشم • ثم اقتصر بيعه على أنواع جيدة من الرقيق ، بأسعار عالية ، لا يقوى على دفعها الا وجهاء القوم كالوزراء والأمراء ، وصار من أكابر أرباب الوظائف والنواب • وعرض عليه السلطان من المصالح والنصائح ، ما لم يكن يعرضه على أحد من قبل ••

وفوض له السلطان نور الدين أمور البلاد والعباد ، يحكم بما يراه من الصواب ، ويستعمل من يرى ، ويعزل من يرى ، ويمضى الأمور على ما يرى ••

ثم استطاع خليل ـ بجهده ودأبه ـ أن يصل الى وظيفة النائب الكافل ، نائب السلطنة • سمى كافل الأمم الاسلامية ، يرجع اليه في جميع أمور المملكة ، ويحكم في كل ما يحكم به السلطان ، ويعين أرباب الوظائف ، ما جل منها وما صغر ، ويكاتب نواب المماليك ، فيما كانوا يكاتبون فيه السلطان • وجرت الأمور بمقتضى رأيه ، يحكم بالصواب ، ويصدر المراسيم ، ويتقدم على جميع الناس ••

ظل خليل هو السلطان الثانى للمملكة ، حتى أصبح ـ بعد وفاة السلطان الراحل ـ هو السلطان الفعلى • وحتى قبل أن يتولى خليل منصب السلطنة ، فانه كان يتكلم ـ في حياة السلطان نور الدين ـ على عادته ، من غير معاند • وكان بقية الأمراء في خدمته ، يخضعون لارادته ، ويلبون أوامره ، وينزلون عنده ، ويأكلون السماط ••

وقيل انه لما مات السلطان نور الدين ، أخفى السلطان خليل

النبأ • طلب من الوزراء والأمراء أن يقسموا له يمين البيعة ، بأمر من السلطان المريض • وحين تم له ذلك ، أعلن وفاة السلطان السابق ، ومبايعة كبار رجال الدولة للسلطان الجديد ••

(فصل)

لا تتم السلطنة الا بدخول قلعة الجبل ••

تقدم الأمراء ـ كالعادة ـ فقبلوا الأرض بين يدى السلطان ، وقبلوا يده وقدمه • ثم مضى الموكب ، فدقت الكوسات ، وسائر الوزراء والأمراء وأعيان الدولة أمامه وحوله ••

مضى الموكب فى طريقه ، والقواد والناس والخاص والعام ، على الجانبين ، يعظمونه ويبجلونه • فلما وصل الى ميدان الرميلة ، بدأ الصعود ـ بين نفير البروجى ـ الى قلعة الجبل ••

افتتح السلطان أمره بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وأنصف المظلوم ، وشدد على الظالم ، وعفا عن الناس ، وأطلق من كانوا فى السجون ، الا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ، ومن كان معروفا بالسعى بالفساد فى الأرض ، أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق ••

وسيرت الوفود الى قلعة الجبل ، والى الايوان السلطانى ، تقبل الأرض بين يديه ، وتحلف يمين الولاء ، فلا تثب على السلطان ، ولا تخونه • ثم أمر ، فلا يدخل عليه أحد من الأمراء الا بمفرده ، أو بمملوك واحد ، ويترك بقية مماليكه أسفل القلعة • رضخ الأمراء لهذا الأمر • كل واحد يدخل بمفرده • اذا جاء بهدية ، فانه يدخل بمملوك واحد ليحملها له • كان يدرك أن المؤامرات والدسائس التى طالت غيره ، ربما ـ لو لم يقض عليها فى مهدها ـ تناله • سبعة سلاطين آخرين ، أغلقت عليهم الأبواب ، ووثب عليهم أقرب خاصتهم ، وفتكوا بهم ، أو خلعوا على مرأى من مماليكهم وحريمهم وجواريهم • ولم يكن أحد يدخل عليه ومعه سلاح ، ولو سكين • وكان يجلس وعنده أسلحة لا تفارقه أبدا ••

(فصـل)

فاعلم أن السلطان خليل ـ بعد أن جلس على سرير السلطنة ، وملك الديار المصرية والشامية والحجازية ، وأفيضـت عليه الخلعة السوداء ـ أولى اهتمامه للآراء التى اقترحت لقبا يتسمى به ·· ولكنه كان قد راجع أسماء من سبقوه فتجنب ألقابهم ، واختار لقبا جديدا ، هو التأكيد على ما انتواه لصالح رعيته · أعلن أن أساس الدولة هو اللقب الذى اتخذه لنفسه ، وما تجرى به المكاتبات ، وما يذكر فى خطب الجمعة ، وفى المناسبات · وضربت السكة فى مصر والقاهرة باسمه ، ودعى له على منابرها ··

وجاء اختياره للقب أساس الدولة ، لأن مالا أساس له ، متهدم ·

(فصل فيما نسب الى السلطان أسـاس الدولة خليل بن الحاج أحمـد من روايـات غريبـة)

المبـالغة مصـيبتنا · اذا أحببنـا أو كرهنا ، نختلق الروايات الفاسدة ، ننتحل الكلمات التى لا أساس لها ، نلفق المواقف الكثيرة ، معظمها باطل ، وأقلها صحيح ··

نسب الناس الى السلطان أساس الدولة خليل أحكاما عجيبة ، وانتهوا الى طغيـانه · رويت عنه حـكايات تجعله من أفجر الملوك ، وأكثرهم فسقا ، وأقلهم حياء ودينا · ثم زادت الروايات ، فنسبت الطغيان الى دمامته ، وضـعف جسـمه ، واعتـلال صحته · فهو قد التوى على نفسـه ، وأسرف ـ لسـخطه على ظروفه الصـحية ـ فى القسوة على الناس ··

كان خليل بن الحاج احمد من خيـار جنسـه ، لحسن صورته وشمائله ، وميله الى الشـجاعة وتجنب الغـدر · وكان يحمـل بين جنبيه قلبا محبا ودودا ، هو الذى حمل حب عائشة ، وافتتن بها · وكان جميل الصورة ، معتدل القامة ، لولا عرج خفيف فى مشيته ، اثر ضربة سيف · وكان وجهه يميل الى البياض ، وشعره أصفر ، وعينه بنية اللون · أما العين الأخرى ، فقد أطفـأتها ضربة خنجر · وهذا أعيب ما فى وجهه ··

وكانت له هيبة عظيمة ، لا لاستبداد في طبعه ، أو عنف في شخصيته ، وانما لأن هيبته كانت تصغر لها هيبة الوزراء والأعيان . ومع أنه كان بعين واحدة ، فان الأعين ما كانت تجرؤ على الرنو اليها ، لما فيها من بريق ، ولمهابته . واذا سار موكبه ، لا يجسر أحد أن يحدق ، أو يطيل المشاهدة . وكان الوزراء والأمراء لا شيء الى جانبه ، ولا تظهر لهم أبهة ولا رونق ، ولا يقوم أحدهم ما دام السلطان قاعدا ، ولا يتحدث الا اذا أذن السلطان له ، ولا يقاطع الا أن يجيب على سؤال . فاذا أظهر السلطان غضبه على امرىء ، توقع الحاضرون هلاك المغضوب عليه في وقته وساعته ..

وقيل ان السلطان أساس الدولة خليل أجزل للرواة والقصاص كي يصبحوا أبواقا تذيع فضله ، وتعلن في الناس مجده ، وتنسج حول سيرته خيوطا مذهبة من الضلالة والزيف ..

فاعلم أن السلطنة تعنى الحجة . والسلطان هو حجة الله فى الأرض . منصب السلطنة خطير ، ليس بمقدور - ولا من حق - أى أحد شغله . الشروط لذلك كثيرة ، وان كان أهمها : الرجولة الكاملة ، والعقل ، والشجاعة ، والخبرة بأحوال الناس ، ومعرفة قدر كبير من علوم الشريعة ، ليقوى على فصل الخصومات ، والاتصاف بالعدل ، والحرص على تفقد أحوال الرعية بصورة متصلة ، والسخاء ، وأداء الفرائض والطاعات ، وتجنب المعاصى وما يلوث الأعراض ، واطلاق أرزاق الناس ، ونصرة العلوم والآداب ..

كانت تلك الشروط - وغيرها - موجودة فى السلطان خليل ، مما سنتناوله في حينه ، واستحق بها هذا المنصب الشريف ، بل وزانه بكماله وعلمه وفضله ، فالسلطنة بذلك متعينة عليه ..

كان يسهر أغلب الليل فى مذاكرة أخبار العرب والعجم والأمم السالفة ، وسير الملوك والحروب والفتن والمكائد . وربما نحى الكتاب جانبا لينصت الى من يروى له عن تجارب وخبرات . ولم تكن النار تنطفىء فى مطابخه . آلاف الارطال من لحم البقر والجدى والغزال والدجاج والأوز والأرانب وغيرها . وكانت أيامه عدلا ظاهرا ، واقامة للشريعة . يحكم فى الناس بما أنزل الله ، ويعمل فيهم بكتابه - سبحانه - ويسير فى العامة والخاصة بسير رسوله العظيم . أقام الحدود ، ودرأ الباطل ، وقطع عسف الظلمة وسعى

المفسدين ، وسد باب الرشوة والبرطيل • وأمن الناس على أنفسهم وعلى أعراضهم وأولادهم وأموالهم • وصرف همته فى العدل ، ومصالح العباد ، والذود عن حقوقهم • وأنشأ الكثير من الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا والأربطة والحصون والمدارس والقصور والدور العظيمة والمساكن الجليلة والخانقاوات والبيمارستانات والمكاتب والأسبلة وبيوت الخلاء والحمامات والقياسر والرباع والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات والقناطر والسدود والجسور ، والأسواق المملوءة بما تشتهى الأنفس ، والخانات المزدحمة بالواردين ، والفنادق الكاظة بالنزلاء ، والمقابر التى تشابه القصور • وعمر الايوان ، والحوش ، والدور ، والجامع بالقلعة • وأمر فاعتدلت أحوال الطرقات ، وشق الكثير من الشوارع والدروب والأزقة ، وعمر الريف فاستغنى أهله ، وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء • وأحسن السيرة فى الرعية والتجار ، فلم يصادر أحد فى زمانه ، ولا قسط عليه • وضبط الدواوين وأجهزة الحكم ، وتيسر تحصيل الدراهم والدنانير ، وتضاعفت المنافع والخيرات ، وتكاثرت الأرزاق والأقوات ، وانتهت البركة الى أبعد مكان فى أرض مصر ، وكثر ورود التجار ، واتسعت الأحوال ، وحسنت الأيام ••

(فصل فيما جرى من السلطان أساس الدولة ، عندما التقى ـ للمرة الثانية ـ بعائشة)

كان السلطان أساس الدولة يغادر قصر صاحب الشرطة بعد أن عاده • ألزمه المرض فراشه ، فصارت زيارته واجبة • سبقه الحراس، يفسحون الطريق الى الجياد ، ليستقلها خاصته ••

تصاعدت الصيحة من اعماقه :

ـ قف ! ••

تواءمت النظرة العابرة بالأمر الذى كأنه الصاعقة ، فلزم الجنود أماكنهم ••

قبل أن تغيب الفتاة فى انحناءة الشارع ، أشار الى الجميع ، الأتابك والأمراء المقدمين ومقدمى الجنود • بدا عليه هرج وخفة • واتجه ناحية الفتاة بما لا يليق بالملوك ••

(فصـــل)

دخل الجند بعائشة من باب السر • يختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة • سارت لصـق الجدار البحرى ، حتى انتهت الى باب يقابل ايوانا كبيرا ، تسطع فيه أضواء ، وتتضوع فى المكان ــ متداخلة ــ روائح المسك والعنبر والـكافور والصـندل والزعفران والند والعود ••

لزم مقدم الجند باب الايوان ، وقال :

ــ أدخلى ! ••

(فصـــل)

طالعها السلطان على كرسى من الذهب ، مرصع بالدر والجواهر• على الكرسى بشـخانة من الحـرير الأخضر ، معلقـة فى بـكرة من الصندل ، رباطاتها من الحرير الأصفر ، يرتدى جبة سوداء بالطرز الذهب ، وعمامة من الشـاش الأسود ، وأسـند قبضته الى سيف مذهب • من حوله الوزراء والأمراء والقضاة وأهل العمامة والسيف ، والأجناد ــ بين يديه ــ واقفون على قدر أقدارهم ••

أما مؤاخذة السلطان على حرصه بأن يقبل الداخل عليه ــ مهما سما مركزه ــ الأرض من تحته ، أو يقبل قدميه ، أو يسجد أمامه ، وارجاع ذلك الى العادات التى عرفها السلطان فى بلاد طفولته ، فهو افتراء باطل ، لأن السلطان لم يبتدع ما كان غير معروف • سـبقه اليه من سبقوه ، وحرص عليه لتأكيد المكانة والأبهة ، والقاء الذلة فيمن يظن نفسه شيئا ••

انتوى السلطان ألا يأذن لعائشـة بأن تفعـل ذلك • لكنها لم تفعله من تلقائها ••

مضت الى حيث وقفت أمامه ••

أعاد النظر اليها • كانت المنتهى فى الجمـال : عينـان مملوءتان سحرا ، يعلوهما حاجبان مزججان ، وجبين مفتوح • خدان أسيلان • أنف أقنى ، تحته فم كأنه يقطر دما ، وأسـنان كالدر • تتـلالا من تحت الثوب بثديين كرمانتين ••

ــ أنت ؟ •• لى أشهر اتمنى لقاءك ••

سالت الدهشة :

ـ أنا ؟! ..

وهو يهز رأسه :

ـ وهل أنسى !؟ ..

قالت والجرأة لائحة فى عينيها :

ـ لكننى لم أفعل ما يستحق الجزاء ! ..

هال نائب السلطنة وقفة عائشة وكلماتها . حتى نبرات صوتها بدت غير مكترثة بالسلطان ، فهى لا تعرف مكانته ، ولا تحترم مقامه ..

صرخ فيها النائب الكافل :

ـ كيف أنت ومخاطبة السلطان ؟! ..

قال السلطان :

ـ دعوها على سجيتها ..

أذهله ـ وأعجبه ـ أن الخوف ـ حين وقفت بين يديه ـ لم يحل بها . لم تأبه بكثرة المحيطين به من أرباب الصولة . بدت هادئة ، وتشاغلت بلف الملاءة حول جسدها . ثم أراحت ذقنها على صدرها ، وراحت تنظر حيث تقف قدماها ..

استوصى نفسه بما يتحلى به من تجرع الغيظ ، وقهر الغضب ، وايتاء العفو ، واذلال الطبيعة . أرجع ما تفعله الى الفطرة ، فهدأت نفسه ..

قال متهللا :

ـ لله المنة اذ امتد بى زمانى حتى رأيتك ثانية ! ..

قالت باستغراب :

ـ وهل رأيتنى من قبل ؟ ..

ـ واستقرت صورتك من يومها فى خيالى ..

أضاف وهو يتجه الى عينيها :

ـ ما اسمك ؟ ..

ـ عائشة ..

ـ بنت من ؟ ..

ـ عبد الرحمن .. القفاص بالشيخونية ..

ـ هل يأذن لك أبوك بمغادرة البيت وحيدة ؟ ..

ـ أمرى بيد زوجى ..
أدرك أنها تجمع الى الجمال الخلاب ، سرعة البديهة :
ـ وهل يأذن لك ؟ ..
ـ لا غرباء فى الحى .. جميعهم أقارب أو جيران ..
ـ ماذا كنت تفعلين عندما يمر موكبنا بشارعكم ؟ ..
ـ لا شيء ! .. تقول أمى : موكب السلطان يمر .. فأخرج لأتفرج ! .
ـ كم مرة حدث ذلك ؟ ..
ـ لا أذكر ! ..
ـ لا تذكرين كم مرة شاهدت موكب السلطان !؟ ..
ـ لا أذكر ! ..
فاجأها بالقول :
ـ هل تريدين الاقامة فى قصر السلطان ! ..
شهقت :
ـ وزوجى ؟! ..
نطق الاهتمام كأوضح ما يكون فى عين السلطان :
ـ من هو ؟ ..
ـ خالد عمار ..
ـ ما عمله ؟ ..
ـ نساخ فى سوق الوراقين ..
ـ هل تحاببتما ! ..
أخلت للغضب طريقا الى وجهها :
ـ لا أعرف هذه الأشياء ! ..
ـ لم تحبيه اذن ؟! ..
عاد الغضب الى ملامحها :
ـ لا أعرف هذه الأشياء ..
ـ فكيف تزوجتما ؟ ..
أضاف الى صمتها الغاضب :
ـ هل تريدين الاقامة معنا ؟ ..
تبدى الخوف فى التماع نظراتها :
ـ لو أعطيتنى الملك ما أخذته دون زوجى ! ..

ضحك ، فبدت فجوة الضرس المخلوع :
ـ ومن قال اننا سنفرق بينكما ؟ ..
وقال للنائب الكافل :
ـ الحقه بوظيفة فى طباق القلعة ! ..

(فصل في عودة عائشة الى أهلها)

لم يخف سكان شارع حدرة الحنة دهشتهم حين رأوا عائشة قادمة من أول الشارع ..

كانت بمفردها . خطواتها هادئة ، ولا يرافقها الأجناد ..

انتزعها أبوها من بين لمتهم وأسئلتهم وتطلعهم : لماذا قبض عليها جند السلطان ؟ .. ولماذا أفرجوا عنها ؟ .. وهل استقبلها السلطان ـ كما قيل ـ في ايوانه ؟ .. وماذا قال لها ، وقالت له ؟ .. وهل عرض عليها ـ فعلا ـ أن تعمل بدور الحريم ؟ ..

لم تحاول عائشة ـ لكثرة الأسئلة ـ أن ترد بشيء . ظلت ساكنة ، هادئة ، وان لم تغب البسمة عن شفتيها ..

(فصل)

تزوج والد عائشة من أمها . ابنة عم له من مدينة طوخ . أنجبا ولدين وفتاة . اختطف الطاعون الولدين في يوم وليلة ، وظلت عائشة وحيدة والديها . أدخلاها أحد الكتاتيب ، فتعلمت مبادىء القراءة والكتابة ، وما تحتاجه من القرآن الكريم ، والكثير من الأحاديث الشريفة ، وبعضا من الفقه وآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار . ثم الزمها أبوها البيت ، لا تغادره الا لضرورة ، تساعد أمها ، وتنتظر الطارق . حتى أتى خالد عمار ، فطلب يدها .

الباب الثـانى

مد خالد عمار يده ، فتناول القلة الموضـوعة بجـانبه • مسح بوزها ـ بتلقائية ـ بأطراف أصابعه • ثم جرع منهـا حتى ارتوى • أعادها ـ ببطء ـ الى مكانها ، وهو يرقب الأجنـاد القادمين من أول السوق ••

كان ســوق الوراقين خاليـا ، أو كاد • اســتغنى اهله عن القيساريات بالواح الخشب ، والحصير ، وقطع القماش ، تحمى من أشعة الشمس فظل السوق مظلما • لا يغير من ظلمته ادبار ليل ولا اقبال نهار ، فهو فى حاجة لأن تظل القناديل مشتعلة به على الدوام •

أصحاب الدكاكين على المصاطب المفروشة بالسجاد أو الحصير ، يقف الزبائن أمام المصاطب ، تفصل بينهم وبين الباعة والنساخين ، أو يشاركونهم الجلوس عليها ••

توقف ركب الجنـد أمام دكان المعـلم عبد الرحمن الشربينى • تأكد مقدم الجند من اللافتة المعلقة أعلى الدكان ، وسأل :

ـ من خالد عمار ؟ ••

نهض خالد من مـكانه • ألف أهل الســوق رؤية الأجنـاد فى صحبة المحتسب ، أو لمهام أخرى ، فلم يعد فى ترددهم على الســوق ما يثير :

ـ أنا ؟ ••

قلب المقدم نظره بين وجه خالد والمجلدات أمامه :

ـ ما عملك ؟ ••

ـ نساخ ••

قال المقدم وهو يتأمل المعنى فى الجند من حوله :

ـ عمل لا أفهمه ! ••

قال خالد عمار :

ـ انه يقوم على القراءة والكتابة ••

جرى المقدم على وجهه بباطن كفه ، وقال :

ـ هل تعمل فى خدمة مولانا السلطان ؟ ..
وهو يحاول كتم شعوره بالمفاجأة :
ـ خدمة مولانا شرف ! ..
وقطع الصمت الذى ساد للحظات :
ـ من الصعب أن أجيد مهنة غير التى تعلمتها ..
قال المقدم :
ـ الجندية لمماليك السلطان وحدهم ، وان أمكننى الحصول على موافقة مولانا نلحقك بزمرة المماليك السلطانية ..
وجد خالد تفكيره وصوته :
ـ أخشى أنى لن أستطيع ! ..
غالب مقدم الجند دهشته :
ـ للجندى المملوكى مرتبة جليلة .. فكيف ترفضها ؟ ..
قال خالد :
ـ أنا من عامة الناس .. والعمل فى خدمة مولانا السلطان مما لا أقوى عليه ..
قال مقدم الجند :
ـ الجندية تميزك عن موظفى دواوين السلطان ..
قال خالد بسرعة ، كأنه ينهى الأمر :
ـ لا أتخيل نفسى فى غير هذا المكان ! ..

(فصل فى غياب خالد عمار)

قالت عائشة لأبيها وهو يغادر البيت :
ـ هذا ثالث يوم لا يعود فيه خالد ..
توقفت يده على مقبض الباب :
ـ من أين ؟ ..
قالت :
ـ الدكان ! ..
بحلق الرجل فى استغراب :
ـ كنت أتصور أنه ينصرف قبلى ويعود فى الليل ..
كان خالد عمار يقيم ـ قبل زواجه ـ فى الدكان الذى يعمل



فيه • ثم انتقل الى بيت عبد الرحمن القفاص • لعبد الرحمن وزوجه غرفة ، ولخالد وعائشة الغرفة الثانية • وكان اذا تأخر عليه الليل فى العمل نام على المصطبة الحجرية أمام الدكان ••

توهمت عائشة أن ذلك هو ماحدث فى غيـاب اليوم الأول •• لكن القلق خامرها فى غياب اليوم الثانى • فلما انقضى اليوم الثالث ، لم تجد عائشة بدا من مصارحة أبيها بغياب زوجها ••

(فصـــل)

مال عبد الرحمن القفاص الى سوق الوراقين ••

قال له المعلم عبد الرحمن الشربينى :

ـ كنت سآتيك للسؤال عنه ••

قال الرجل فى دهشة :

ـ هل غاب عن الدكان أيضا ؟ ••

ـ انصرف ليلة السـبت ولم يعـد •• وها نحـن فى صـباح الثلاثاء ••

ـ ألم يخرج مع أحد ؟ ••

ـ أنت تعرف خالد •• يصادق كل الناس ، ولكنه يذهب ويأتى بمفرده ! ••

(فصـــل)

انقطـع خبر خالد عمـار ، فلا يدرى أحد أين سـلك ، ولا أين ذهب • كان يانعا ، حسن الشكل ، تبدو عليه نجابة وطيبة • لم ير سكان الشـيخونية أكثر منه أدبا ، ولا أنظف هيئة • وقيـل انه ـ لحسـن منظـره ـ افتتن به اللوطية ، وان لم يؤخـذ عليه سـلوك معيب • وكان محبوبا لكل من يعرفه • لا يراه قريب ولا غريب الا أحبه • وكان غالبا على نفسه ، هادئا فى أحواله ، ولا يخالط أحدا • لين الكلمة ، جميل العشرة ، عيناه سريعتا الاسـتجابة ، يتأثر لكل مصيبة ، حتى لو نالت من نالوه بأذى أو من لا يعرفهم • وكانت اذا نشأت مشـكلة فى سوق الوراقين ، أو افتقـدوا الرأى الحـاسم ، قدموا خالد عمار على ذوى السن والمكانة ••

أتاحت له مهنته أن يكون عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها • وبرز فى علوم كثيرة ، وانفرد بها عن سواه : التفسير والحديث والفقه والتاريخ والحساب ومطالعة النجوم والطب • وكان يحفظ الكثير من الحكايات والأمثال والطرائف والملح • يروى لعائشة بعضا منها اذا لم يكن بين يديه ما ينسخه ، وعاد الى البيت مبكرا ••

كان مشهورا بالدين والصلاح • نشأ فى عبادة الله • لا يشغله سوى عمله • يقضى الساعات فى نسخ الأوراق وتحبيرها • لا يغادر البيت الا لصلاة الجمعة ، أو لشراء احتياجاته من الدكاكين القريبة ، ولا يغادر الدكان الا للصلاة فى الزاوية أول السوق • وقيل أنه لزم الشيخ رمضان أبو البركات خطيب مسجد سنجر الجاولى ، وقرأ عليه ، وسمع عليه الحديث ، وتفقه فى المذاهب الأربعة ، وحفظ الوعظ والشرائع • وقيل انه لم يكتف بأن يكون ناسخا ، وانما ألف فى علوم كثيرة •

(فصل)

لم يكن خالد يعرف عائشة ولا رآها من قبل • كلمه دعموم القيسى بائع الحلوى بالحمزاوى عن جمالها وحسن تربيتها ، فتقدم لخطبتها • أذن له ابوها برؤيتها ، فرأى فيها ما فاق رواية القيسى له • وناشد أباها سرعة تزويجه منها ••

تزوجا • وأقاما فى بيت عبد الرحمن القفاص • تعنى بزوجها وبأبيها وبأمها التى أقعدها المرض • وكان خالد يقيم ـ قبل ذلك ـ فى الدكان • وظلت قيلولته على المصطبة الحجرية ، فهو لا يتناول غذاءه فى البيت ••

قيل انه كان يحلو له ـ أحيانا ـ بعد انصرافه من الدكان ـ أن يغذ السير الى النحاسين • يجول فى شارع بين القصرين • تروقه العمائر الجليلة والحمامات والأسواق والدكاكين والحوانيت والخانات ومراكض الخيل ومعاطن الابل ومرابض الغنم والسرج والقناديل التى جعلت من الليل نهارا ، وأنواع المآكل والمشارب والأمتعة والبضائع الهائلة ، الخبازين واللبانين والشوائين والعطارين

والبـذارين والخضريين والشرايحيين ، وصـانعي الحصر والسـلال واللباد ، والمشغولات الجلدية والمراكشية ، وغازلي الحرير والقطن والكتان • في الارض ـ على الجانبين ـ أعداد لا حصر لها من أرباب المقاعد ، يتاجرون في كل شيء : المأكولات من اللحم السميط واللحم البقـري والدجاج المطجـن والقطاة والأوز المطجـن وفراخ الحمـام والعصافير المقلاة ، وأصناف الحلوى والفاكهة • والرواة والقصاصون يقرءون السير والأخبار ، وينشدون الأشـعار • من حولهم زحام ، والزحام في الشارع بطوله ، المارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب ، فيما بين الريدانية الى باب الفتـوح ، والأكتـاف يصطدم بعضها ببعض ••

لم يكن يشارك في شيء من ذلك • انما هو يشاهد ويتأمل وربما طالت وقفته أمام لعبة ، فلا يغادر مكانه حتى يتأخر الليل ، وتخف الأقدام عن المكان ، فيعود الى حدرة الحنة ••

خشي عبد الرحمن القفاص أن يكون زوج ابنته قد ارتاد رحبة باب اللوق • بها من أنواع الهنك والرنك وأصحاب الحلق وأرباب الملاعب والحـرف ما يصرف المؤمن عن دينـه ، ويدفعه الى حمـاقات ومباذل ليست من طبعه •

لكن بعرور القرنفلي التـاجر بالحمزاوى أكد أنه شـاهد خالدا أمام دكانه ، يحمل أكياسا من العطارة ، قبل أن يميل الى الصنادقية•

وقيل انه شوهد مرات كثيرة ، يتردد على المشهد النفيسي ••

وقال الشيخ ادريس هيكل ، مزملاتي سـبيل الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين ، انه شـاهد خالدا في طريقه الى باب الفتوح ، معه أطفال صغار ، متقللون في ملابسهم ، وان بدت عليهم نجـابة ، لولا أنه يعرفه جيدا لظن أنه عريف كتاب ••

(فصل في ترحيب السلطان خليل بعائشة للاقامة في قلعة الجبـل)

كبس جنود السلطان على بيت عبد الرحمن القفاص ، فلم يبد النـاس ذعرا ، ولا سـألوا عمـا يريدون • ألفـوا اقتحامهم بيته ، وخروجهم بعائشة الى قلعة الجبل • لا يستدعونها ـ شأن الجنود ـ

الا بهذه الصورة • تعود بعد ساعة أو أقل • تلزم حجرتها المطلة على حدرة الحنة ، لا تكلم أحدا ولا أبويها ، فيما استدعاها السلطان من أجله • يحترم الجميع صمتها • حتى أبوها يكتفي بالسؤال : هل تريدين شيئا ؟ •• لا يشير الى بواعث استدعائها للقلعة من قريب ولا بعيد ••

لم يعد السلطان خليل مشدودا الى جمالها الفتان وحده ، جمال من نوع آسر غريب ، كأنه السحر الذى لا قبل لامرىء باكتشاف مصدره • انما استهوته ـ ربما بصورة أشد ـ تلك العفوية التى تبين فى كلماتها وتصرفاتها ، عفوية لا تعمل حسابا لشىء ، ولا تتوقع • هى تعرف من هو ، لكنها تقف أمامه فتخاطبه مثل الآخرين • يلمح الدهشة فى الأعين المحيطة • يتوقع أنها تنطق بكلمات لم تألفها أذنه ، أو تتصرف بما يثير حرجه أمام الوزراء والأمراء وأعيان البلاد • أسكت محاولاتهم لاسكاتها • أهمل النظرات الغاضبة • استلقى ـ فى طمأنينة ـ على وسادة الفطرة ، فهو لايعنيه الا أن تظل أمامه، بين يديه ، وبالقرب منه ، تحادثه وتحادثه وتحادثه• تشرق وتغرب وتجاوز المسافات التى ينبغى ـ فى حضرة الملوك ـ أن تقف عندها ، ولكنها ظلت غاية فى الأدب • لا تلفظ كلمة نابية أو عبارة مما يتحدث به العوام والسوقة • وكان الخجل يغلب عليها ، فتتجه بنظراتها الى الأرض ، أو تتشاغل بتأمل المقرنصات والأعمدة والزخارف النباتية فى الأسقف والجدران • ربما بدت وكأنها تحصى القناديل التى تناثرت فى القاعة الفسيحة ، ولم تكن تتعمد شيئا • سجيتها تدفعها الى التصرف ، والى الكلام ، فلا تجاوز حد الأدب ، وان ساوت فى تعاملها مع الجميع ••

لمح السلطان نظرة الغضب فى عينى النائب الكافل • قالت : أنت ، ولم تقل : مولاى • قبل أن يبين عن غضبه فى لوم أو توبيخ ، أعادت الكلمة ، وكررتها ، والسلطان ينصت ، فابتلع النائب ملاحظته ••

قال السلطان لعائشة :

ـ هل كلمت زوجك فى أمر اقامتك بيننا ؟ ••

قالت وهى تغالب دموعها :

ـ زوجى اختفى منذ خمسة عشر يوما ••

أظهر السلطان اهتماما • قام نصف قومة ، واتجه الى العينين اللتين لم يوهن جمالهما حزن طارىء :

ـ أين ذهب ؟ ••

قالت في حيرة :

ـ لا أدرى ! ••

ـ ألم تسألى ؟! ••

ـ قيل انه غادر دكانه في سوق الوراقين ، فلم يظهر من يومها ! ••

ـ ربما فر من جريمة ؟ ••

التمع الغضب فى عينيها :

ـ خالد سيرته محمودة ••

ـ فأين ذهب اذن ؟ ••

رافق الدمع قولها :

ـ ربما أصابه مكروه ••

أشار السلطان الى صاحب الشرطة :

ـ ابحثوا عن الرجل ••

وسبقت كلماته ابتسامة مشجعة :

ـ حتى يظهر زوجك ، فنحن نرحب باقامتك بيننا ••

هزت رأسها ، وقالت :

ـ أنا وزوجي نسكن في بيت أبى •• ولولا أن الجند أتوا ما غادرت البيت ••

اضافت وهى تغالب الحرج :

ـ أمرنى أبى ألا اغادر البيت حتى يظهر خالد ! •

الباب الثـالث

أخطأ عبد الرحمن القفاص وقوف الأجناد عنده • ظن أنه موكب المحتسب • لم يكن فى مهنته ما يستدعى سؤال المحتسب ولا عقابه • حين أخبره قائد الجنـد بطلبـه الى القلعـة ، دس قدميـه فى البلغة الصفراء ، واطمـأن الى اتسـاق العبـاءة على كتفيه ، وقال لشـحتة البرغوتى بائع الفجل والجرجير أمام الدكان :

ـ خذ بالك ! ••

كان البرغوتى قد استقر أمام دكان عبد الرحمن القفاص • ألف ضيق أصحاب الدكاكين من جلسته ، وتشاجره معهم • عبد الرحمن القفاص ـ وحده ـ سكت عنه ، فلم يناقشه ، أو يحاول دفعه بعيدا عن الدكان ، ربما لأن صـناعة الأقفـاص لا شـأن لها ببيع الفجل والجرجير ••

الباب الأعظم يدخل منه سائر الناس ، وباقى الأمراء • يرقون بضع درجات الى مدخله ، أول الجـانب الشرقى من القلعة • يفضى الى ساحة ، فى نهايتها دركاه ، يجلس بها الأمراء وسـائر الناس ، حتى يؤذن لهم بالدخول ••

قبل أن يأذن الحاجب لعبد الرحمن القفاص بالدخول على حضرة السلطان ، فانه شدد عليه بألا يعارض السلطان ـ عندما يمثل بين يديه ـ فى كلام يقوله ، وأن يكتفى بالانصات ••

أسكته الخوف عند دخوله ، وأخذته الرعدة •

ترك له السـلطان يده وقدمه ، فقبلهمـا • عاد بظهره وهو من الرهبة فى غاية ••

قال السلطان :

ـ أمرنا بأن تعمل فى قلعة الجبل ••

قال الرجل وهو لا يصدق أن محدثه هو السلطان :

ـ أنا رجل سوقى لا أعرف غير صنع الاقفاص ! ••

قال السلطان :

ـ أريد رجلا أمينا لا صانعا ٠٠
قال فيما يشبه التوسل :
ـ أخشى أني لن أكون على مستوى ثقتكم ٠٠
صاح السلطان فى غضب :
ـ مالك يا رجل ٠٠ أمرنا لا يرد ! ٠٠

(فصــل)

فاعلم ان السلطان قد استحدث لعبد الرحمن القفاص منصبا بلا اسم ٠ الوظائف الـكبرى مقصـورة على المملوكية ، فهو لم يصـبح وزيرا ولا حاجبا ولا ناظرا ٠ انما عهد اليه السلطان بشئون القلعة من مأكل ومشرب ومخازن ووسائل اقامة واعاشة واسطبلات خيـول ومناخات جمال وشون غلال ٠ صار هو المكلف بأمرها ، لا يعانده فى ذلك مسئول أيا كان ، أشـبه بوظيفة الاسـتادار ، وان لم يسـمه بذلك ٠ ترك فى يده الحل والعقد والأمر والنهى والبذخ والانفاق ، وشمل عمله ابلاغ السلطان حاجات الناس ومطالبهم ، وتقديم مايرد ويعرض الى السلطان ٠ يعاونه فيما يشغله بضعة آلاف من الخـدم والحشم والعبيد ، وفى عهدته دواوين الامراء والطواحين والمرتجعات والحوائج خاناه والطبلخاناه والركاب خاناه ، وخزائن الاموال والحلى والطعام والشراب والفرش والأوانى والأمتعة والجـوارى ٠ وأجرى عليه رواتب من لحم وتوابل وخبز وعلف وزيت وكسـوة وشمع ٠ وأذن له بأن يسير ـ مع أرباب الوظائف والمماليك والغلمان ـ خلف الموكب السلطانى ، اذا نزل من قلعة الجبـل الى مصر والقـاهرة ٠ وصارت له من المنزلة عند السلطان ما ليس لأحد ، فهـو يثق به ، ويستريح اليه ٠ وأباح له أن يدخل عليه بغير اذن ، وفى أى وقت ٠ وقيل انه كان لايأذن لغيره بالدخول عليه فى مرضه ٠

(فصل فى افعال عبد الرحمن القفاص ، داخل قلعة الجبـل)

فاعلم أن عبد الرحمن القفاص لبس العمامة المدورة ، والفرجة ، هيئة كبار العلماء ٠٠



أقبل على ملذات الحيـاة ، يعب منهـا . يعنى بالمأكل والمشرب وقضاء الشهوات والمآرب . لا يشغله الا الواقع واللحظة ، ولا يعنيه من أمر الا بمقدار ما يدخله على نفســه من متعــة ولــذة . تقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء . وبالغ فى اظهار الفخر . وتظاهر بالملابس العظيمة ، وركب البغلات الرائعة ، والخيول المسومة بالسروج المحلاة ، واللجم الثقيلة ..

أضله ما بات فيه من نعمة ، فترك شــغله ، وجاهر بالمعــاصى ، وشغل باللهو والمجــون ، وركب الفجــور والمآثم . أعرض عن عمله باقباله على النساء والمردان وسماع الأغانى والبذخ والسفه والصرف الطائل والترف . وأسرف فى استعمال المنشطات والوصـفات التى تجلب الفــرحة . وكان يغنى مع المغنين ، ويرقص مع الراقصــين ، كأحدهم . يقلد الراقصــات فيما يؤدين ، لا يرعى ســنا ولا منصبا ولا مكانة ..

نسى شيخوخته ، فانهمك فى الملذات ، وأنواع الخلاعة والطرب ، واستولت النساء على فؤاده وعقله . اذا رأى امرأة مليحــة ، وقعت عليه الرعدة ، وســال لعــابه ، وبرق بصره وطالت اقــامته فى دور الحريم بين الغبوق والصبوح والبيض والسمر . وأقبل على اللهــو بالحمام ، وســماع ضرب العــود ، ولحن المزمار والنــاى ، وشرب الزبيب المطبوخ ، واتخاذ الغلمان ، والنــدامى ، واحضــار الأوباش للعب المصارعة بين يديه ..

أهمل أبناء الشيخونية . حتى هؤلاء الذين قصدوه فى مصالح ، اعتذر ــ بمشغولياته ــ عن لقائهم . ولم يسأل عن أحوال عائشــة وأمها ان كانت أحوالهمــا ميســورة أم أنهمــا تعانيان . وتنــاثرت شائعات غير مؤكدة أن الرجل هو الذى ألزم ابنته البيت ، فلا تصعد الى القلعة . وكان يزورها كل يومين أو ثلاثة ، يطمئن عليها ، وعلى أمها ، ويوصى بهما أهله وأقاربه والجيران . ثم يعود الى ما كان قد ألفه من فساد وافساد ..

قيل ان السلطان خليل دخل على عبد الرحمن القفــاص لبعض الأمر . وجده يجالس اماء القصر ، ويتبادل واياهن فواحش القول ، كانت الرقاع المرفوعة الى مقام السلطان تؤكد اتجاه الرجل الى اللهو

والمجون ، وأنه نشر من مظاهر الخلاعة والاستخفاف بالآداب ما لم يكن معروفا من قبل ..

هتف السلطان :

ـ ائتمنتك على أموالى ، فأنفقتها فى السفه .. والله لأقتلنك !.

(فصل فيما جرى للقفاص بعد انكشاف أمره)

أمر السلطان بأخذ عبد الرحمن القفاص ، وضربه ، واستخلاص الأموال منه ، لظهور خيانته ، واسرافه ..

أخذه صاحب الشرطة . قيده وضيق عليه ، ليصدق عما صار اليه من أموال السلطان ، وحساب ما كان يتولاه ..

وجدت عنده صناديق كثيرة ، مملوءة من أنواع الجواهر المختلف الألوان والقيم ، وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجواهر والذهب والفضة . ووجدت صياغات من الذهب والفضة ، وأمتعة وطرائف وفرش وأشربة وأطعمة ، ثمنها ملايين الدينارات ، وثياب ديبقية من صنع تنيس ودمياط ، وأثواب من الديباج الملون ، ومن الحرير والصوف والفرو والمخمل والثياب البعلبكية ، وعقود متصلة بياقوت وزمرد وسبح ، والكثير من مراكب الطيب والتجمل والحلى ، وراحلات أحقاف من الذهب الخالص ، وأعداد لا حصر لها من الصحاف وأكواب الشراب والأباريق والقدور وأوانى اللبن ، جميعها من الذهب والفضة ، وأنواع من الكلاب السلوقية والجياد العربية الأصيلة والجمال والبغال والالآت ، لا تعد ولا تحصى ..

عذب القفاص حتى يبذل شيئا ، فلم يفعل . قيل انه لما اشتد به التعذيب ، ذهب عليه أمره ، وبال على ساقه . نوع له الجند أنواع العذاب . ضربوه بالمقارع ، عصروه فى أكعابه وأصداغه ، جلدوه بالسياط ، فركوا جروحه بالملح ، غطوا رأسه فى الماء المغلى . طالبوه بأن يثبت ما يملك فى العقار والدور والأطيان والأموال والكسوة والكراع والجواهر وغيرها ..

لما أيسوا منه ، حملوه الى السجن ، فمات فى حبسه ..

حملوه الى المقابر ، فدفن بلا غسل ، ولا كفن ، ولا صلاة عليه .

(فصل فى الوقائع المكذوبة ، المنسوبة للسـلطان أسـاس الدولة خليـل)

فاعلم أنه قد ألفت عن السلطان أساس الدولة خليل حكايات كثيرة ، نسجها قوم جبلوا على الشر ، وأضمروا الحقد ، وتطلعوا الى الوثوب . لم تردعهم أريحية السلطان وكرمه ، ولا سكوته المتعاظم عن مؤامراتهم .. فانصرفوا الى تدبير المكائد ، والباس الباطل ثوب الحق ، والادعاء بغير الصواب ..

قيـل انه قـدم ذوى الأسـافل والسـوقة على ذوى البيوتات والأصول . وكان يكثر من الاجتماع بأراذل الخدم والرقيق فى قصر أبيه ، يلاعبهم ، ويعرفونه ما لم يكن يعرف ، ويأمنون أذاه بتحريضه على المجون الذى لا يتفق مع سنه ..

وقيـل ان والده كان يسـكت عن أذاه للرقيـق ، ولا يردعه . وادعت رواية ، أنه رأى من أحد الرقيق ما لم يسره ، أو ان الرقيق تباطأ فى تنفيذ أمر ، فبطحه على الأرض ، وتناول سيفا ، فذبحه بيده كما تذبح الشاه . ثم داس على جثته بقدمه ، وصب عليها ما تبقى فى قارورته من نبيـذ . ثم لاحت له فـكرة فنفـذها : نفض عنه سرواله ، وبال منتشيا ..

قيل انه مال ـ قبل أن يبلغ الحلم ـ الى المزاح والمجون والفسق والعبث وارتكاب الفاحشة ، فهو يقضى غالب وقته فى جناح الحريم ، يخـلى لأيديهـن سـبيل ملاعبته . فلمـا أيس والده منه ، وأمضته تصرفاته ، أهمل شأنه ، ولم يعـد يشـغله مسـتقبله ، ولا المهـام الجسـيمة التى كان قد أعده لها . اكتفى بالانفـاق عليه ، دون أن تعنيه ـ بالنسبة لولده ـ صورة الأعوام القادمة ..

أما رواية الطواشى شعوان عن رؤيته لخليل ـ فى طفـولته ـ يحبس مجموعة من القطط فى قفص حديدى ، وأعمـل فيهـا سـيخا حديديا . فلما نقل الى ابيه ما رآه ، بان عليه ارتياح . وأكد الخادم بشاعة ما حدث ، فنهره الحاج احمد ، وقال :

ـ لو أنه ضعيف القلب .. فكيف يبيع الرقيق ؟! ..

تلك الرواية ، لم أوفق فى التثبت منها . والأغلب أنها ـ ككل المزاعم ـ كاذبة ، شاهدها الطواشى الذى ربما شغله الاساءة للسلطان أساس الدولة لهوى فى نفسه .

(فصــل)

نفى سكان الشيخونية أن يكون عبد الرحمن القفاص قد ارتكب ما نسب اليه من جرم • قالوا انه كان عفيفا ، لم يطلع الناس منه على عورة ، ولم يعرف سبيل العيب ، ولم ير فى لهو قط، ولا شيء يشبه اللهو • وكان يؤدى فرائض دينه ، ويلتزم الدعة والقنـاعة والخلق القويم • ربى عائشة فأحسن تربيتها • ولزم زوجه فلم ينكح غيرها ، ولا تشره الى الزواج من ثانية • ملكها نفسه ، فاقتصر عليها ، وظل لها محبا ، وبها كلفا • ولما أقعدها المرض ، لم يتزوج عليهـا ، انما ظل بها رفيقـا • وزاد من حدبه عليهـا • يعود من دكانه فلا يكـاد يغادر البيت •• فكيف له بالنظر الى غيرها ، وخيانتها ؟ ••

ارتدت عائشة عباءتها ، واكتفت بالطرحة أرختها على رأسها ، فلا نقـاب على الوجه • وارتدت قبقـابا ، أطلت منه أصـابع مطلية بالحناء ، وسارت بين الأجناد ••

قال السلطان لعائشة :

ـ لا دخل لنا فيما حدث لأبيك •• أخطأ فنال جزاءه ! ••

أبدت فزعها ، لا لموت أبيهـا • فلكل عمر أجل ، وانمـا للتهم الشـنيعة التى مات بسـببها • فهو لم يظهر عنه فى حيـاته ـ كما ادعت ـ شيء من الأفعـال الردية ، لا شرب الخمـر ، ولا زنا ، ولا ارتكب فاحشة أبدا ••

قالت فى ضيق لم تحاول اخفاءه :

ـ لم تكن الخلاعة من طبع أبى ••

قال السلطان فى تأكيد :

ـ ضبط متلبسا بجريمته •• فلم أجد سبيلا للعفو عنه ••

ثم وهو يوضح بيديه :

ـ لقد جعلته المستعين على خزائنى وكراعى وخاص أمورى •• فخان الأمانة وحق عليه العقاب ! ••

تذكر ، فأضاف :

ـ لماذا لا تأتين أنت وأمك فتقيمان فى القلعة ! ••

قالت بلهجة باترة :

ـ لن أغادر بيتى ••

دون أن يجاوز ترفقه :
ـ لكنك الآن بلا عائل ••
ـ من قال ؟ ••
ـ خالد عمار مختف •• وأبوك عوقب بذنبه ••
ـ الخال والد ••
قال فى استغراب :
ـ ماذا تعنين ؟ ••
قالت عائشة :
ـ خالى الآن هو أبى ••
شغله الفضول :
ـ خالك ؟! ••
ـ نعم ••
قال فى فضوله :
ـ من هو ؟ ••
ـ محروس القليوبى •• الجزار بالحسينية ••
ـ استأذنيه فى الاقامة بالقلعة ••
ـ هو الذى نصح أبى من البداية بألا أغادر البيت ••
ـ الآن •• تغير الوضع ••
ـ لا أتصور •• فقد شدد علينا صبيحة موت أبى بألا نرى الطريق •• لولا جنودك الذين يقتحمون البيت ! ••

الباب الرابع

تعدد نزول السلطان من قلعة الجبل بعساكره • يركب فرس النوبة من الاسطبل السلطانى • القبة والطير على رأسه ، ومعه درة لها سبابتان • يطلع من باب السر الى مصر والقاهرة • الوزراء والأمراء والأعيان أمامه وحوله وبين يديه • الكل مشاة فى ركابه • تسبق الموكب جماعات دق الطبول والصنوج والصفافير وجماعات المخبرين ••

يمضى الموكب الهائل ، شاقا القاهرة من ميدان الرميلة الى الشوارع التى تسع موكبا بهذه الأبهة والضخامة • يعود من الطريق نفسها ، أو من شوارع أخرى ، تفضى ـ فى النهاية ـ الى الرميلة • ثم تضرب الطبول والأبواق القلعة ، ايذانا بصعود السلطان الى قلعة الجبل ••

أمر السلطان بألا تغلق الدكاكين والحوانيت والبيوت أبوابها • من كان فى عمل ينصرف اليه ، حتى يرى السلطان كل شىء على حاله ، فيحكم بما يراه • يختبر قيم المبيعات ، ونسب الأسعار ، واقامة الموازين بالقسط ، ويكتنه غش المنتحلين ، وفساد المزورين ، والمدلسين فى المعايش ، وفى المكاييل والموازين ••

كان سعيه فى ذلك لله تعالى • من غير التفات الى الدنيا • أعرب العامة عن رضائهم لحسن سياسته ، وكمال شجاعته ، وجميل سيرته ، وحسن تدبيره ، واقتدائه بالرسول العظيم وخلفائه الراشدين ، وانكبابه على المصلحة التامة للخاصة والعامة ، وعقابه للغشاشين والمتلاعبين بأقوات الناس ••

وحين أبدى نائب السلطنة اشفاقه ، لتعدد نزول السلطان من القلعة ، وما يجره التجوال فى الأسواق من مشقة ، قال السلطان خليل :

ـ أنا أدرك أهمية سخط الناس ورضائهم ••

قال النائب الكافل :

ـ انهم عبيد مولانا السلطان ..
قال بحسم :
ـ العبد ان لم تضمن ولاءه .. لا تضمن حياتك ! ..

لم يلتفت السلطان الى الرجوات والشفاعات . كان يهملها تماما ، يعتبرها كأنها لم تكن . يشقيه أن يسقط حق الجماعة لصالح فرد ، أيا كان ..

(فصل في عدل السلطان خليل)

المصادفة وحدها هى التى مالت بموكب السلطان خليل الى الحسينية . الأمطار صنعت بركا هائلة فى الشارع الأعظم ، فدفعته الى االأمر بتحويل الموكب من باب الفتوح ـ حيث كان يتجه ـ الى الحسينية ..

توقف عند البيوت بيتا بيتا ، وعند الدكاكين والوكايل . أمر بازالة الأوساخ ، ومحاسبة المتسببين . ولاحظ غياب قناديل من مداخل البيوت ، فشدد على تعليقها ..

قيل ان النائب الكافل نبهه الى دكان الجزار محروس القليوبى . لكن السلطان لم يكن ينوى دخول الحسينية من أصله . ولم يخطر فى باله انه سيلتقى بالرجل . وربما غاب عنه أن دكان الرجل فى الحسينية ..

مع أن محروس القليوبى كان قد غطى المذبوح من الخراف والبقر والجاموس والجمال على باب دكانه ، كأنه قد اجتهد فى تلبية أمر المحتسب أو متولى القاهرة ، بوجوب تغطية الأطعمة ، فان السلطان ـ بما أفاده من جولاته المتتالية فى الأسواق ـ طالب الأجناد أن ينزعوا الأغطية عن اللحم ، ففعلوا . أدناها مقدم الجند من السلطان وهو راكب فى منتصف الطريق . تشممها ، ففطن الى فسادها ، وهتف بالرجل :

ـ متى صارت هذه الذبيحة ؟ ..
قال الرجل وهو من الخوف فى غاية :
ـ هذا الصباح ..
قال السلطان :

ـ لو أنها ذبحت منذ ثلاثة أيام ‥ ما اعطت كل هذا التعفن ‥
وهتف في الرجل :
ـ ما اسمك ؟ ‥
ـ خادمكم محروس القليوبى ‥
ـ تسكن في الشيخونية ؟ ‥
ـ أنا من سكان الحسينية ‥
فاجاه السلطان :
ـ يكثر ترددك على الشيخونية ‥ فهل تاتى منها بلحمك الفاسد ؟
ـ انما ازور أختي وابنتها في حدرة الحنة ‥ مات عائلهما لتغير نفس مولانا عليه ‥
وقال فيما يشبه التهيؤ للبكاء :
ـ أما لحمنا فكله ـ يامولانا ـ ذبائح هذا الصباح ‥
صرخ السلطان :
ـ أصدقك وأكذب ما رأيته وتشممته ؟! ‥
وضرب الهواء باصبعه :
ـ خذوه ! ‥
ولوى مقود الجواد ناحية الطريق ‥

(فصل فيما جرى للجزار محروس القليوبى ، بعد افتضاح غشه)

أمر صاحب الشرطة ، فنودى في مصر والقاهرة : أن من أحب أن ينظر الى عقوبة الجزار محروس القليوبى ، فليحضر من الغد أمام دكانه بالحسينية ‥

اجتمع الناس من كل مكان لمشاهدة اقامة الحد ‥ بدوا مجمعين فى الثناء على القليوبى ‥ قيل انه من أفاضل تجار الحسينية ‥ يتقى شره الأكل والنكاح ، وينفق ثلث الذبيحة ـ وربما أكثر ـ على المحتاجين وذوى المسبغة ‥ وقيل الكثير عن جوده وسخائه وبذله ‥ وقر له فى أحاديث الناس ـ تجلة ، فهو يرفض الدعابة فى غير وقار ، ويمتنع عن الأمور التى تزرى بصاحبها ، كالمزاح ، أو التدخل

الضار في حياة جيرانه من أصحاب البيوت والدكاكين • وقيل عن سماحة أخلاقه ، وميله الى اسكات اللسان عن هذر القول ، وسعيه لمصادقة العلماء والفقهاء والصالحين والمنتحلين للفضلاء ••

أتي به الجند ماشيا • بيده حبل يجرونه به ، وملابسه مضمومة بيده الأخرى •

تزاحم الخلق ، باعة الطريق وأهل السوق والصنائع والعاطلون عن العمل من العيارين والشطار والرعاع والزواقيل والغوغاء • نفذ به الجند ـ بالكاد ـ بينهم • يسلطون عليه نظرات الفضول والاشفاق ، وهو حائر فى نفسه • يتطلع الى ما حوله بعينين ثابتتى المحجرين ، كمن فقد بصره ••

وضع الجند فى وسط الشارع ـ قبالة الدكان ـ آلة من خشبتين ، شدتا بعضهما الى بعض بحبل سميك ••

لما رأى الجند والآلة فى أيديهم ، أدرك مصيره ، وسبق الى قلبه أنه الموت ، وعرف أنه سيقتل لتوه • أظلمت الدنيا فى عينيه ، واستولى عليه الخوف ، وتداخل فى صوته الشهادة بالنحيب ، وعلت وجهه صفرة ، وزاغت عيناه كأنه قد داخلهما حول ، وعلا صرير أنفاسه ، فسمعه القريبون ، وتخاذلت ركبتاه ، فأسنده جنديان أمسكا بساعديه • وشغل الناس من حوله بذعر كأنه يطلب الغوث ، وصار يردد فى صوت واهن :

ـ لم أفعل شيئا ! •• لم أفعل شيئا ! ••

قال مقدم الجند :

ـ لم أصادف فى حياتى من اعترف بجريمته ••

وعلا صوته :

ـ قد برز أمر المحتسب بأن تعاقب بالموت ••

بدا العقاب أكبر من التهمة ، فتملك الاشفاق قلوب الناس ، وساءهم قتل الرجل من غير تحقيق أمره ، أو استماع لحجته ••

حاول التملص ، فأسكتته ضربة المقرعة على رأسه ••

قال شحيبر الديرى ، بائع العطارة فى الدكان المواجه :

ـ ما ذنب القليوبى ! ••

قال مقدم الجند وهو يطوف على الوجوه المتطلعة بعينين منتبهتين :

ـ باع للخلق لحما فاسدا ..
قال الديرى :
ـ لو أن ذلك صحيح .. فهل العقاب هلاكه ؟ ..
قال مقدم الجند :
ـ تذوقه مولانا السلطان ، فكاد يقتله ..
قال الديرى :
ـ أكل منه الكثيرون .. ولم يصابوا بأذى ..
قال محروس القليوبي في صوت كالحشرجة :
ـ يعلم الله أن التهمة باطلة ..

قيل أن أعوان السلطان دبروا لمحروس القليوبى حادثة الغش . وهذا وهم باطل وافتراء . حين وقف موكب السلطان أمام دكان الرجل ، لم يكن يعرف هويته ، وأنه خال عائشة . نظر الى قطع اللحم المدلاة أمام الدكان ، فراعه لونها . تشممها ، فتأكد من فسادها ..

سبقت المقرعة صوت مقدم الجند :
ـ يا ابليس .. لقد تشمم السلطان بنفسه لحمك الفاسد ..
قال وهو يغالب ألمه :
ـ هل الذبيحة تفسد بعد ساعتين من ذبحها ؟ ..
قال شرارة بهوار التاجر بالتربيعة :
ـ ارحموه .. وعاقبوه بالشرع .. حتى لو باع لحما فاسدا . فان لكل شيء قضاءه ..
قال مقدم الجند :
ـ ترك السلطان أمره للمحتسب ، فقضى بذلك ..
قال شرارة بهوار :
ـ ان كان ولابد ، فابقوا على حياته ..
صرخ مقدم الجند :
ـ هل أعطل حد الله ؟ ..
قال بهوار :
ـ وهل القتل هو حد الغش ؟ ..
ـ كان يسعى لموت الناس ..
قال الشيخ عبد الله الطويل ، خطيب مسجد ابن طولون :

ـ ادرأوا الحدود بالشبهات ‥ فما بالك بالقتل ؟ ‥

قال بهوار :

ـ الرجل ـ كما تقولون ـ غش فى بضاعته ‥ فأشد ما يكون من عقوبته أن يجلد ! ‥

قال الشيخ الطويل :

ـ تقتلون الرجل بشهوة الانتقام ، لا بالشرع ‥

تصامم مقدم الجند عن السماع ٠ أشار ، فدفع الأجناد الناس الى بعيد ، ولصق الجدران ‥

جذب الأجناد الرجل ٠ وضعوا وجهه بين الخشبتين ، وهو يصرخ ويستغيث ٠ يبدو صوته لا شيء فى تلاغط الأصوات من حوله بالعويل والانتحاب ‥

رفع مقدم الجند سيفه الى أعلى ، فشدت الخشبتان الى بعضهما ٠ علا صوت تكسر العظام ، فضج الناس بالذعر والصراخ والنواح ، وأظهروا جزعا مفرطا ، للبشاعة التى انفرجت عنها الخشبتان ٠

الباب الخامس

كان مسجد شيخون قد فرغ من آخر المصلين • تهيأ الشيخ عاصم ندا ، خطيب المسجد ، لاغلاقه • خطا بظهره الى الوراء وهو يسحب الباب ناحيته ، فلحقه صوت هامس ••

فوجىء الأجناد ـ عكس مرات سابقة ـ بغياب عائشة عن حجرتها ، وعن بيت عبد الرحمن القفاص ••

أحكموا الحصار حول شارع الصليبة والشيخونية والشوارع والحارات القريبة • بدأوا البحث بيتا بيتا ، فى الدكاكين والحوانيت والأسبلة والتكايا والزوايا • قلبوا الأثاث ونظروا تحته ، وفى الأسطح، وفى حنايا السلالم ••

غلب التحير عائشة ، فخرجت على وجهها ، تلتمس الملاذ • تابعت ما جرى بعينين مذهولتين ، لا تقدر على الصراخ أو البكاء ، كى لا يفطن الأجناد الى موضعها • مات خالها ، وتركها بلا عائل ولا مورد ، ليس لها قوت ليلة • لمحت الشيخ عاصم ندا يغلق باب المسجد ، فنادت عليه • لم تكن تعرفه ولا رأته من قبل ، وانما غلبها الارتباك ، فلم تدر كيف تتصرف ولا الى أين تتجه ••

غضب الشيخ لصوت امرأة فى الطريق عقب العشاء :

ـ من أنت ؟ ••

ـ عائشة ••

عاود السؤال :

ـ من أنت ؟ ••

ـ أنا ابنة عبد الرحمن القفاص بالشيخونية ••

ـ ما أخرجك فى الليل ؟ ••

حسرت عائشة الملاءة عن وجهها ، وبكت • بدت من الخوف فى غاية ، كأنها تفر من الموت ، أو ما هو أقسى • وشملتها ارتعاشة ، فهى لا تكاد تتمالك وقفتها ••

قال لها الشيخ :



ـ أنت الآن خائفة ·· اذا كان الغد حدثتك فيما تطلبين ··
صحبها الى داره بالركبية · أشار الى غرفة بها ، وقال لعائشة :
ـ هذه لك ! ··
أضاف في ود :
ـ أدخلى ، واستريحى ·· فقد لحقك الليلة تعب ! ··
وأمر زوجه ، فهيأت لعائشة ما تحتاجه من فرش واغطية ولباس وطعام وشراب · ما سألها من هى ولا ممن تخاف · استردت انفاسها ـ فى اليوم التالى ـ فروت له · أنصت الشيخ دون أن يقاطعها · غالب الحيرة لدقائق ، ثم قال :
ـ أنت ضيفتنا ! ··
ولكن جند السلطان كبسوا ـ قبل أن ينتهى النهار ـ على بيت الشيخ عاصم ندا · أحاطوا به من جميع الجهات · سدوا الركبية من أول الشارع ، ومن آخره · صعدوا الى أسطح البيوت المقابلة ، والمجاورة · انتشروا فى الأزقة الخلفية ، وداخل الدكاكين والوكايل · خرجت عائشة أمامهم من داخل البيت · خرج الجند ـ بعدها ـ يصحبون الشيخ عاصم ندا مكبلا بالأصفاد ، لا يقوى حتى أن يواجه نظرات الاعداد القليلة من التجار وأرباب الحرف وأرباب المقاعد · تجمعوا ـ بالفضول ـ لمتابعة ما يحدث ··
خلت الركبية ـ فى لحظات ـ من الجند ، ومن عائشة ، والشيخ ندا · اتجه الموكب الى ميدان الرميلة · ومنه الى قلعة الجبل ··

(فصل فى لقاء السلطان والشيخ عاصم ندا)

أوقفوا الشيخ عاصم ندا بين يدى السلطان · تأمله ، ونظره ، فوجده من أكمل الرجال ، وهيبته ظاهرة عليه ··
غالب السلطان دهشته :
ـ لماذا فعلت ما فعلت ؟ ··
قال الشيخ بدهشة مماثلة :
ـ وماذا فعلت ؟ ··
هتف السلطان :
ـ لماذا كنت تخفى الفتاة فى بيتك ؟ ··

قال الشيخ :
ــ لاذت بى ‧‧ فآويتها ! ‧‧
ــ هل جعلت بيتك مأوى للضالين ؟ ‧‧
ــ انما استغاثت بى ‧‧
ــ من ماذا ؟ ‧‧
غالب الشيخ تردده :
ــ لا أعرف ! ‧‧ أرجأت الكلام معهـا حتى يزول ما بنفسـها من خوف ‧‧
قاطعه السلطان :
ــ أم أن هذه الذقن تخفى رغبات شرير ؟! ‧‧
وعلا صوته فى حسم :
ــ تحروا عنه ‧‧ وعاقبوه بما فعل ‧‧

(فصـــل)

نزل الجند بالشـيخ عاصم ندا من القلعة ‧ طافوا به الطرق وهم يضربونه بالمقارع على مفاصـله وركبتيه ، ثم ربطوه فى عنقه بحبـل ، وجروه به ، وهو لا يقوى الا على مسايرتهم ، لأن محـاولة التخلص من قيد العنق تعنى الشنق حالا ‧‧

نودى فى الناس أن خطيب مسـجد شـيخون لم يقف عند حدود الشرع ، فجـرى عليه ما أمر الله به على من يخـالفون شريعته ‧ أمات معالم الدين ، وابتز مقام الأصفياء والأمناء ، وحرف الفرائض ، وترك السـنن ، واسـتنبط أحـكاما شرعية ، بمـا يوافق هواه ، وخرج عما تقتضيه واجبات وظيفته بالصدع بالحق ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واقامة الهوى ، فترك الواجبات ، وأحل المحرمات من الزنا واللواط والخمر وغير ذلك ‧ ابتدع لها الأسباب والمبررات ، واستهزأ بالآيات المحكمات ، وعارض المشتبهات بعضها ببعض ‧‧

قيل انه ادعى الاسلام ‧ وأنه لم يكن يرجو الجنة ولا يخاف النار ولا يخشى الله ، ولا يركع ولا يسجد الا كوظيفة ‧ ويأكل الميتة والدم ، ويحب الفتنة ، ويبغض الحق ، ويشهد بما لا يرى ، ويقبل الهدايا من أجل قضاء حوائج الناس ، ولا يدفع عن أمواله ــ وهى كثيرة ــ زكاة ، ويستولى على النذور ‧‧

وقيل انه كان له تابع من الجن ، يتحدث على لسانه · ونسب اليه السحر ، والشعوذة ، والطلسمات · ورويت عنه قصص وحكايات ··

(فصل فيما انتهت اليه أيام الشيخ عاصم ندا)

قيل أن الأجناد أخلوا سبيل الشيخ عاصم ندا فى رحبة متسعة ، مسورة من كل الجهات · ثم أطلقوا عليه الكلاب المتوحشة · حاول الفرار منها ، فلم يستطع ، حتى أدركته ، ومزقت جسده ، والتهمت لحمه · وقيل انه شنق بعمامته ، وألقى على مزبلة بباب مسجده ثلاثة أيام ، حتى أكلته الحيوانات الضالة · وقيل انه ضرب بالمقارع على رأسه حتى الموت · ثم ألقيت جثته مقطعة فى النيل من أماكن عدة ، حتى لا يكون له قبر ، فيسعى من أخضعهم لتأثيره الى اقامة ضريح ··

قيل ان وفاته كانت لسبب يختلف عن كل ذلك ، فقد كان شيخا يعانى أمراض السن ، ولكنه أكثر من الجماع ، فاعتراه الضعف والأمراض ، حتى هلك ··

(فصل فى حب السلطان خليل للعلم والعلماء)

فاعلم أن السلطان خليل كان محبا لأهل العلم والدين ، متواضعا معهم ، باشا فى وجوههم · اذا وقف أحدهم على بابه ، فانه يقابله ـ حالا ـ ولا يتركه · واذا أتاه أحد من العلماء ، قام اليه · وقدم العلماء ـ فى كل المناسبات ـ على جميع الناس · حتى على الوزراء والأمراء · وكان ـ فى معظم الليالى ـ يجمع أهل العمامة والفقهاء والوعاظ والصوفية ، يتذاكرون الموت والآخرة ، ويأخذهم التأثر ، فيبكون · وأكثر من انشاء المساجد الجامعة والمساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والمدارس والخانقات ودور الأرامل والصغار الايتام والملاقيط والبيمارستانات · وأقام مالايكاد يحصى منها · وأمر ألا يبيت أحد من المجاورين بجامع الأزهر ، وجدت فيه قوارير بول وحصر وأشياء لا لزوم لها ، فاستراح المصلون ، واتسع الجامع عليهم · وأنشأ المكاتب لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم · وعين لها المدرسين والمراقبين ، وعين مدرسين لتفسير القرآن ، ومدرسين للحديث النبوى ، وعشرات الطلبة،

يحضرون كل يوم ، بعضهم فى وظيفة النقيب ، وبعضهم الآخر فى وظيفة داع للسلطان عقب الدرس . وجعل على المكاتب الأوقاف . وأوقف للانفاق على الأساتذة والقراء والطلبة . وافتتح مكتبا يقرأ فيه الأيتام القرآن الكريم بقلعة الجبل . وأضاف أروقة لمجاورى الأزهر . وزاد فى مرتبات أهله وأخبازهم . وبنى للصوفية ثلاث زوايا ، يتردد عليها خلق كثير من المقيمين والطارئين . وأجرى الرواتب على القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطالبى العلم من أهله ، ومن الواردين اليه ، والطارئين عليه . ضمن لهم بكل ما يحتاجون اليه من المعيشة والكسوة ، لهم ولعيالهم . ورسم باصلاح أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وبعمارة بقاع البر والربط الدوارس . وفرض للفقيرات والمنقطعات . ورتب للعميان اكسية من الصوف ، تصرف لهم كل شتاء . كما رتب لمؤذنى المساجد أحرمة تقيهم برد الشتاء عند صعودهم الى المآذن لآذان الفجر . وبنى الخانات لأبناء السبيل ، والمسافرين بغير أجرة . وابتنى بالمدن الكبرى فنادق ، عينها لنزول الفقراء والسابلة الذين يعجزون عن دفع الأجرة . ورتب من يتلون آيات القرآن الكريم كل صباح ، ومن يقرءون صحيح البخارى شهور رجب الى نهاية رمضان . ومد الأسمطة فى شهر رمضان والمناسبات الدينية ، للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ، وجماعات الفقراء . وكانوا اذا فرغوا من الطعام ، يطاف عليهم بالطيب . وأوقف لأبناء السبيل ، ولغسل وتكفين الموتى ، ومساعدة العاجزين عن أداء فريضة الحج ، وانشاء المياتم التى تعنى برعاية الأبناء وتعليمهم ، ومغاسل ومصليات الأموات ، ودور القرآن ، ودور الحديث . ورسم للمحتسب ، فهو يمنع القصاص والوعاظ من ارتياد المساجد والساحات والميادين ، يمزجون بكلامهم الأكاذيب والبدع التى تشى بضحالة ما يعرفون ، وميلهم الى استغلال الناس ، وابتزاز أموالهم ، والتأثير عليهم ، بحيث يجدون فى تصرفات السلطان ما يدعو الى التغير عليه .

(فصل)

فوجىء الناس بما حدث . تكلموا عن خطيب مسجد شيخون ـ بعد أن عاقبه السلطان خليل على سوء أفعاله ـ بأشياء ، الله اعلم

بصحتها ، ومدى الصدق والزيف فيها • وأغلب الظن أن معظمها غابت عنه الحقيقة ••

قيل انه كان رجلا مباركا من أولياء الله تعالى • دينا ، صالحا ، فاضلا • كثير العبادة والزهادة والتهجد والصيام المتتابع والانقطاع بمسجده • شاغله اجتناب الفواحش والزهد فى عرض الدنيا ، والاقبال على أمر الآخرة • وكان يلبس اللباس الخشن ، ويتناول القليل الغليظ من الطعام ، ولا يحب العظمة أو التجبر ، ويميل الى الحزم والعزم والأمانة والصدق والوفاء والرواية للحديث والبلاغة والشعر والبيان والوقار والحشمة وتجنب الهزل • وكان فيه حلم وحسن انصات الى محدثيه • يلقى الناس بالتحية ، يظهر لهم المودة • يعاشرهم بلين الكلمة ، وترفيع المنزلة ، فتغالى العامة فى محبته واعتقاده ، واجتمع فى مسجده الخلق الكثير ، والجم الغفير • يؤم المصلين فى الصلوات الخمس ، ويقضى غالبية يومه فى قراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن ، ويجلس الى من يقصده من الناس ، فى المسجد ، أو فى الخانقاه المقابلة ، يذكرهم ويعلمهم ، ويحل ما يطرأ على حياتهم من مشكلات ، وان لم يعرف أنه قد تردد على الحجرات المخصصة لخلوة الصوفية • وكان يلتزم عيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، وزيارة الأضرحة ، والاقبال على تلاوة القرآن الكريم ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويرحم أهل الذل والمسكنة ، ويخالط أهل الفقه والحكمة • ولم تعد الصلاة مقصورة فى الخمس • صار المسجد جامعا ، فأم الشيخ ندا المصلين فى الجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء ••

قيل ان الناس ازدحمت عليه ، لغزارة علمه ، وحسن بيانه ، ولأنه كان يحسن معاشرة الناس ، ويتقصى أحوالهم ، ويعينهم على أيامهم ، ويبذل الرأى والمشورة ـ والجهد أيضا ـ لحل ما يعتورهم من مشكلات، ولا يظهر تبرما ولا تأففا من أسئلتهم وحاجاتهم ، ويفتح بابه أمام ذوى الحاجة والمسكنة ، وليس فى الدنيا شىء أحب اليه من الصدقة • وكان يعرف المصلين بالاسم • اذا تأخر أحدهم سأل عنه ، واذا مرض أحدهم عاده ، ويكثر ـ فى السر ـ من الايثار للأيتام والأرامل وذوى الحاجة • وكان لا يتحدث عن صومه أو صلاته ، وكل ما يتصل بالعلاقة بينه وبين ربه ••

وقيل انه كان يعنى بالمسجد ، وينظفه بنفسه ، ويسرج قناديله

بيده ، ويأتى له بلوازمه . وأفلح ـ كما سبق ـ فى تحويل مسجد شيخون الى مسجد جامع ، تؤدى فيه الصلوات الجامعة ، فلا يقتصر على الصلوات الخمس . وكان له فى مسجده خلوة ، يستريح فيها ، ويستقبل مريديه وتلاميذه من العلماء والقضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود والفقراء والعامة . وكثرت أعداد النازلين فى خانقاه شيخون المقابلة من أبناء الحارات البعيدة ، وأهل الريف ..

وقيل انه عمل ـ لفترة طويلة ـ جليسا للسلطان ، يذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله ، وتجويد الخط ، وأخبار الأنبياء والخلفاء . وكان السلطان يأخذ كلامه على سبيل المكاشفة . وقيل انه كتب مصاحف كثيرة بيده للناس بلا ثمن . وكان يقطع من عمامته قطعا يتصدق بها ، أو لتكميل كفن ميت . فاذا صلى العشاء ، انصرف الى منزله بالركبية . يصحب معه ـ أحيانا ـ من يلقاه فى سبيله من الفقراء ، فيأكلون على مائدته ، يجلس بينهم كأحدهم . ثم ينفرد بنفسه غالبية الليل ، يغلق عليه باب حجرته ، فلا يزعجه أحد ، ولا يحادث انسانا . يخلو للعبادة والمطالعة والفتاوى ، يقرأ كل رأى ويناقشه ..

وكان عنده مكتبة عامرة بالمجلدات والكتب ، فى الفقه على سائر المذاهب ، حتى التى بطل استعمالها ، وفى النحو واللغة ، وكتب الحديث والتواريخ وعلم النجوم ، وسير الملوك ، وطبائع الأعداد ، والكيمياء ، والروحانيات ، وسائر العلوم الشرعية ..

لم يكن يعرج الى جهة أخرى فى طريقه ما بين المسجد والبيت القريب ، اللهم الا اذا احتاج المسجد ـ أو احتاج هو نفسه ـ الى ضروريات ، يلزم شراؤها من الحوانيت القريبة ..

وكان أهل بيته يعدون للفقراء فى افطار رمضان « قصاع كبار » مملوءة بالثريد واللحم ، مسقية بالمرق والسمن ..

وقيل انه كانت له أحوال وكرامات وكشوف كثيرة ، وان حرص على اظهار التواضع . وكان أهل الشيخونية ـ والحارات الاخرى ـ يعتقدون صلاحه وولايته ..

(فصل فيمن ولى بعد الشيخ عاصم ندا)

ولى امامة المسجد ـ من بعد الشيخ عاصم ندا ـ شيخ من أفاضل العلماء ، اسمه دبوس القمبشاوى . اكتفى بأداء الصلوات الخمس ،

لا يفتح المسجد قبلها أو بعدها · بيت الله لاداء شعائره · من يخالف ذلك ، لا حظ له في الدين ، ولا نصيب من الايمان واليقين ··

أدى الى السلطان حقه ، وعرف له طاعته ، وبالغ في الخدمة ، وحرص على الدعاية للسلطان ، والمناداة بالاخلاص لحكمه ··

قيل انه عندما كان يخطب فى المصلين ، ويؤمهم ، يتحرج المتعالمون ، ومن يظنون في أنفسهم ، من الصلاة خلفه · ويخرجون على الأبواب ، فيلقاهم الاجناد بالأذى ، فيصبرون ، حتى تنتهى الصلاة ··

وقد خصص له السلطان ثلاثة جنود ، يحرسونه فى ذهابه وقدومه، بصورة دائمة ··

الباب السادس

طاف المنادون ـ فى رجب ـ بشوارع مصر والقاهرة ، يعلنون موعد دوران المحمل • الطريق الى الحجاز آمن ، من شاء الحج الى بيت الله ، عليه أن يعد نفسه لذلك ، ولا يخشى عاقبة أى شيء ••

رسم السلطان ـ فى ذلك العام ـ بقيامه عن الحاج ، بما يستأديه منهم أمير الحرمين ، فأقبل النـاس على أداء الفريضـة • لم يبق صغير ولا كبير الا خرج الى طريق الحج ، يشاهد ويشارك ويبتهج ، يضربون المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ••

جدد السلطان أبواب الحرم كلها ، وجدد باب الكعبة ، وغسـلت الكعبة بماء زمزم فى أواخر ذى القعدة • قبل أن تشمر ستورها ـ فى عيد الأضحى ـ وتلبس الكسوة ، وتغسل بماء الورد ، عند عودة الركب من منى فى طريق الاياب • يباشر أمراء الركب بأنفسهم خلع الكسـوة العتيقة عن الكعبة ، والباسها الكسوة الجديدة ••

واصـطنع أهل الحجـاز ، ومنحهم الهبـات ، ورسـم بتخصـيص الأموال ، تحملهـا فى ركابهـا قوافل الحـج ، تنفـق فى الأمراء وأهل الركب والفقراء والمجاورين بمكة المكرمة والمدينة المنورة • أمر بأن يفرق فى الحرمين الذهب والفضـة والثيـاب والحلوى والطيب ، فلا تفارق قافلة الحج أهل الحجاز الا وقد أغنتهم • وشدد على مطاردة أهل الكفر والزندقة • وقيل انه رسم بعقوبة سعود الماوردى ، أمير حاج المحمل ، لما فعله مع الحجـاج فى العـام الأخير • أخذ من الحـاج على كل حمل دينـارا ، وباعهم الماء الذى يردونه ، وسـكت عن السرقات التى نالت القوافل والأمتعة ••

واعتذر السلطان ـ بمشغولياته ـ عن أداء فريضة الحج فى ذلك العام ، مع أنه كان قد بعث الى دمشق والكرك برمى الاقامات • وأمر الوزراء والأمراء الذين أزمعوا السفر صحبته ، أن يحضروا تقادمهم من الخيـل والجمـال حسب العـادة • وتهيـأ الأجنـاد والدواوين للسفر السلطانى • وقيل ان السلطان تبرع للحج عنه أربعمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الباهرة ••



أعد الجميع أنفسهم لدوران المحمل • بالغوا فى الزينة ، وتنافسوا فى اظهار البهرجة والتجمل • زينت البيوت والدكاكين والقياسر والأسواق بأفخر أنواع الزينة • وأوقدت المساجد جميعها أجمل قيد ، وضربت الخيام للنزول للوضوء والصلاة ، وقدم أهل الريف للفرجة على حرق النفط ، وعمل الصواريخ ، وسارت السفن المزدانة فى النيل ، وباتت أعداد كبيرة فى الحوانيت حتى ينظروا المحمل من أقرب موضع • لم يبق أحد من أبناء الوزراء أو الأمراء أو العوام ، الا وأعد نفسه كى يشارك فى ذلك اليوم المشهود ، وزاد الزحام كأشد ما يكون فى بركة الحاج ، يستريح بها الحجاج قبل تركهم للقاهرة ••

(فصل فى غياب عائشة عن حدرة الحنة)

بدأ الموكب من باب النصر • مخيم أمير الحج • أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وأهل العمامة والطرق الصوفية • تناثرت حلقاتهم بالذكر ، وتعالى التكبير والتهليل بأغنيات الحج :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل

الصناديق الخشبية المستطيلة ، تحملها الجمال • فى الخلف ، سار جمل الكسوة • حرير نفيس ، مطرز بالذهب والفضة فى أبهى صورة • يحمل مصحفين صغيرين ، داخل صندوقين من الفضة الموشاة بالذهب ، وستور الديباج الاحمر ، عليها زخارف وكتابة مطرزة بالذهب على أرضية من حرير أخضر ، وقماقم الفضة مطلية بالذهب ، وعلى أطراف الكساء شراريب ، تعلوها كرات الفضة ، يتفرع منها أسلاك دقيقة ••

ارتدى الجميع التشاريف والخلع والاقبية ، وركبوا الخيل المطهمة • يتحدث العوام عن عظمة الكسوة ، ما بها من آيات قرآنية ولآلىء وزمرد وذهب وفضة ، وألوان لا حصر لها من الجواهر والمصوغات• ضج الناس بالضحك لمرأى عفاريت المحمل ، يرتدون أزياءهم ، ويركبون الخيل ذات القلاقل والأجراس والشراشح بما يثير الضحك • يطلقون النكات والنوادر • يداعبون العوام على جانبى الطريق بقفشات ودعابات•

اتجه الموكب ـ عبر الشوارع ـ الى ميدان الرميلة ، أسفل القلعة • لعب المماليك برماحهم وسلاحهم أمام السلطان • واتجه المحمل ـ بعد ذلك ـ الى شوارع أخرى ، يحيط به القضاة والفقهاء وأماثل الكتاب ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان والأشراف والجلساء وأصحاب المراتب والقراء والمنشدون وفقراء المتصوفة والدراويش ••

انشغل الجميع ، فلم يلحظوا غياب عائشة عن بيتها • استأذنت من أمها للفرجة على المحمل ، فأذنت لها بعد تردد • كانت قد لزمت البيت ، منذ عثر الأجناد عليها فى بيت الشيخ عاصم ندا ، وصعدوا بها الى القلعة • رفضت أن تقيم في القلعة ساعة واحدة ، فأخلى السلطان سبيلها ••

هدأت الضجة في الخارج ، وطال غياب عائشة • داخل المرأة قلق ، فنادت على زبيلة أبو طعيمة الوقاد بتنور الفرن المواجه • أنبأته بما حدث • نقل مخاوف الأم لسكان الشارع ، وأصحاب الدكاكين القريبة ••

قال عيسى الطبلاوى خادم جامع الحاكم بأمر الله ، انه شاهد الجنادرة يركبون عائشة جوادا فى ميدان الرميلة ، ويصعدون بها الى القلعة ••

(فصل فى اقامة عائشة داخل القلعة)

صحبها الجنادرة من باب « القلة » • على جانبيه جداران هائلان ، ينتهيان ببرجين عظيمين مستديرين ••

قال لها السلطان :

ـ تنزهى فى القلعة ما شئت •• ولكن لا تنزلى الى القاهرة ! ••

أضاف وهو يهز سبابته في وجهها :

ـ أنت حتى الآن فى حلمى •• فاحذرى غضبى ! ••

أقام لها من يقوم بخدمتها ، ويرتب ما تحتاج اليه • اذن لها بالعيش فى ثلاثة قصور جوانية • واحد مسامت للارض ، واثنان تصعد اليهما بدرج ، تطل شبابيكها الحديدية على منظرة القصر الكبير ، وعلى بساتين وأشجار ومساقات للأبقار والأغنام والحيوانات النادرة والطيور والدواجن ، ومجارى المياه تديرها الأبقار ، ترفعها من النل الى

موضع ، فأخر ، حتى القلعة ، الى القصور السلطانية ودور الأمراء والخواص ، والى الحمامات ..

بنيت القصور من الخارج بالحجر الاسود ، والحجر الأصفر . يغطيها من الداخل الرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون والألوان الزاهية . أما الأسقف فكلها مذهبة ، موهت باللازورد والنور . وفى الجدران طاقات من الزجاج الملون . بينما فرشت الأرض بالرخام المنقول من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله ..

ألزمها السلطان أن تقيم في واحد من القصور الثلاثة ، لا تغادرها . بوسعها أن تخرج الى القلعة ، قصورها وأبراجها ودورها ، فلا تدخل طباق الجند ، ولا تنزل الى مصر والقاهرة . كل من بالقلعة يعلم بأمرها ، وانها ضيفة السلطان ، فهى لا تخشى الأذى ..

(فصل)

قادها خصي ـ فى اليوم الثالث ـ الى حجرة مغلقة . دار فى قفلها بالمفاتيح . لم تخف روعها للنفائس المصفوفة على الأرفف ، والمعلقة فوق الجدران . لم تر مثلها من قبل ، ولا تعرف أسماءها . لم تتبين من كلمات الرجل سوى كلمات من مثل الذهب والفضة والزبرجد والمرجان والياقوت والتحف والديباج والحرير والأبنوس ..

قال الخصي :

ـ هذه كنوز لا نظير لها فى بلد آخر .. أمرنى مولاى أن أعطيك ما تريدينه منها ! ..

قالت عائشة :

ـ لكنني لا أفهم منها أى شيء .. ولا أعرف قيمتها ..

(فصل)

هال عائشة ـ وهى تقف قبالة قصر السلطان ـ ذلك السور الهائل المحيط بالقلعة من حجر وأبراج وبدنات ، تنتهى الى القصر الكبير ، فالدور السلطانية الأخرى ..

بدت القلعة مدينة زاخرة بالقصور وقاعات الاستقبال ودور الحريم ودور المال وطباق الحرس والجنود والاسطبلات وخزائن السلاح ومنازل

الحاشية وقصور الوزراء والحمامات والمكتبات والحدائق والأسواق والمطاحن والأفران ..

شاهدت الأبراج والأبواب والمزاغل . وتعرفت - بتقضى الأيام - الى جامع سارية ، وبئر يوسف ، وجامع السلطان قلاوون ، وقصر يوسف ، وبئر السبع سواقى ، وجامع المؤيد ، والقاعات السبع ، والقصور الجوانية ، وطوائف المماليك داخل الطباق ، يتعلمون أنواع الحرب من رمى السهام والنشاب ولعب الرمح وغير ذلك ..

تطلعت الى برج المطار ، بدت أسراب الحمام الزاجل على قمته . تمنت لو أنها تعرف كيف تخاطبه . لو أنها تعرف كيف تضع رسالة تحت جناح حمامة ، تنبه سكان حدرة الحنة الى مكانها ، ربما أمكنهم الوصول اليها . وقفت فى قمة الخندق ، عند برج الركن الجنوبى الشرقى . هنا أقرب المسافات بين القلعة والمقطم . تبدو حجارته وهضابه وجامع أمير الجيوش والاكواخ المتناثرة حوله .. ..

أطلت على القاهرة ومصر : المآذن والقباب وأبراج الكنائس وأسطح البيوت والميادين والحدائق والشوارع والدروب والعطوف والقرافة . يختفى الناس ، أو يبدون كالأشياء الصغيرة . من الشرق ، يبدو جبل يشكر والقطائع وجامع ابن طولون . يلوح - من بعيد - النيل وأشرعة المراكب والأهرامات وشواشى النخيل والبساتين وحدائق اللوق المليئة بأشجار الفاكهة ..

قيل ان عائشة كانت تكثر الحنين الى ناسها ، والتذكر ، حتى للذين غيب الثرى أجداثهم . وكانت حزينة دوما ..

(فصل فيما قضى به الشيخ جلال القاياتى ، قاضى الشافعية)

دار العدل الشريف . فى الناحية القبلية من قلعة الجبل . يجلس فيها القضاة الأربعة : قاضى قضاة الشافعية ، قاضى قضاة المالكية ، قاضى قضاة الحنفية ، قاضى قضاة الحنابلة . يمثلون المذاهب الأربعة المعروفة ، ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه . يفصل بين المتقاضين ، ينتصف للمظلوم من الظالم ، يقوم بالأدوار الشرعية ، ينظر فى القضايا المدنية والجنائية ، ويفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء ، ويعين النواب من القضاة

لمباشرة ما يعجز عن مباشرته بنفسه • يشرف على أموال الأيتام والأوقاف يخطب قاضى الشافعية ، ويؤم المصلين فى جامع القلعة • أضاف اليه السلطان ـ ثقة منه ـ الشرطة والمظالم والقصص والحسب ودار الضرب وبيت المال ••

اهتدت عائشة الى المكان من الاسم المنقوش أعلى الباب • سارت بعفويتها التى لا تعطى حسابا لشىء • أوقفها حاجب ينفذ الخصوم الى القضاة • علا صوتها ، فسأل قاضى الشافعية :

ـ من هذه ؟ ••

فى لحظة أو أقل ، كانت قد سارت الى حيث يجلس القضاة الأربعة: الشيخ جلال القاياتى قاضى قضاة الشافعية ، والشيخ نعمان الغريب قاضى قضاة الحنفية ، والشيخ شعبان أبو عطوة قاضى قضاة المالكية ، والشيخ قاسم الكفراوى قاضى قضاة الحنابلة ••

أعاد الشيخ القاياتى سؤالها :

ـ من أنت ؟ ••

قالت :

ـ عائشة •• بنت عبد الرحمن القفاص ••

ـ ما مشكلتك ؟ ••

قالت فى لهجة متشكية :

ـ استجرت بعدلك من جور السلطان ••

نطقت الدهشة فى وجه القاضى . أشار ، فأبعد الحاجب لمة المتقاضين ••

سأل الشيخ القاياتى فى دهشة :

ـ ماذا تقولين ؟..

قالت عائشة :

ـ شرع الله يساوى بينى وبينه ..

خالط الدهشة غضب :

ـ ما للسلطان وامراة مثلك ؟..

ـ يصر على حبسى فى القلعة ..

ـ وما تهمتك ؟..

ـ يدعى أن حبسى استضافة ..

قال الشيخ الكفراوى قاضى قضاة الحنابلة :

ـ تحدثى عن مولانا السلطان بتأدب ..

فوت قاضى الشافعية ملاحظة زميله :
ـ ماذا حدث ؟..
وروت عائشة ما حدث منذ بداياته · قاطعها القضاة لعبارات غاب عنها الأدب ، أو لتوضح الكذب فيما قالته ..
انتهت من روايتها ، فقال الشيخ القاياتى :
ـ هل قلت ما عندك ؟..
قالت عائشة :
ـ أريد أن يتركنى فى حالى ..
قال الشيخ القاياتى وهو يطمئن الى رأيه فى وجوه المشايخ من حوله :
ـ ما دمت لم ترتكبى جرما .. فهذا حقك ..
قالت عائشة :
ـ لا اريد ان اترك حجرتى ..
قال الشيخ الكفراوى :
ـ باعترافها .. فان مولانا السلطان هو الذى امر بالزامهـــا القلعة ..
قال قاضى الشافعية :
ـ ظلم امراة مسكينة امر لا يليق ..
قال قاضى الحنابلة :
ـ لم يظلمها احد !..
قال قاضى الشافعية :
ـ الزامها بالمكوث حيث لا تريد .. منتهى الظلم !..
ففر قاضى الحنابلة فاه :
ـ تتهم مولانا السلطان بالظلم ؟!..
قال قاضى الشافعية :
ـ انا لا اعيب على السلطان .. ولكن حق نزول المراة الى اهلها ثابت ..
قال قاضى الحنابلة :
ـ هذه ارادة مولانا السلطان .. وهو ـ باعترافها ـ قد جعل منها ضيفة معززة ..
قال قاضى الشافعية :
ـ طاعة اولى الأمر واجبة .. ان لم تخالف الشرع ..
وغلبته حماسته :

ـ ما يحق لفتاة أن تنفى عن أهلها بلا مسوغ ..
واضاف فى تأكيد :
ـ لا أكون قاضيا ما لم أقض بالعدل !..
نصح ـ رغم تحذير قاضيى المالكية والحنفية ، وتشديد قاضى الحنابلة بألا يخالف أمر السلطان ـ بتفويت المرأة من باب سرى ، لصق حائط الضلع الغربى لبرج الحداد . ينتهى الطريق الى المقطم . تذهب ـ بعده ـ الى حيث تشاء ..
وقال الشيخ القاياتى للنظرات المشفقة ، المنذرة ، فى أعين القضاة الثلاثة :
ـ أمرنا ربنا أن نحسن الأحكام ، ويسألنا يوم القيامة !..

(فصـــل)

قبل ساعة من الزمان ، كانت عيون السلطان وأرصاده قد نبهته الى ما حدث . كشفت له سوء الفعـل والتـدبير . روت ما جرت بين عائشة بنت عبد الرحمن القفاص والشيخ جلال القاياتى قاضى قضاة الشافعية ..
فاعلم أن خطة القضاء من أعظم الخطط قدرا ، وأجهلها خطرا . القاضى صلة بين الله وعباده ، يؤدى فيهم اوامره وأحكامه ، يطبق عليهم شرائعه . وولاية قاضى الشرع تتحدد فى الفصل بين المنازعات ، وقطع التشاجر والخصومات ، والصلح عن تراض ، واستيفاء الحقوق ممن ماطل بها ، وايصالها الى مستحقيها ، بعد ثبوت استحقاقها . كلها دعاوى خاصة ، لا صلة لها من قريب ولا بعيد بالمصلحة العامة التى هى ما ينبغى أن يترك لحضرة السلطان . سلطة الوالى فى مسائل التجريم والعقاب مطلقة ، دون قيود . دونها بكثير سلطة القاضى . الأصيل يسلب الوكيل اختصاصه ، والعكس غير صحيح . بل أن قاضى الشرع ليس شامل الاختصاص فيما يتعلق بالحدود وغيرها ، انما يشاركه فى ذلك آخرون ، مثل ولاة الحرب . انهم غير مقيدين بالأحكام والضمانات التى قررها الفقه ، ولا تعنيهم شهادة الشهود ، ولهم أن يحكموا بالقرائن ، وأن يحبسوا المتهم ، ويضربوه ، لحمله على قول الصدق . ولهم أن يأخذوا المتهم بالتوبة اجبارا ، أو يظهروا له من الوعيد ما يقوده اليهم طوعا ..
القاضى يمثل الخليفة فى تطبيق الشرع ، وتحقيق العدل . يمارس

عمله بالتفويض والانابة ، فلا يجاوز وضعه أو احكامه مقام السلطان ، هو المفوض ـ اعزه الله ـ من الخليفة ، فى تسيير امور البـلاد والعباد ، بمن فيهم قاضى الشرع نفسه . السلطان هو أعلى سلطة فى الدولة ، بيده الحل والعقد ، والأمر والنهى ، والبذخ والانفاق . اذا أصدر القضاة حكما بعقاب أحد عقابا فوريا ، جلد بالسياط أمام أسوار القلعة . الناس شهود على ذلك . الموت والايذاء البدنى الجسيم عقـوبات يقضى بها السلطان . لا شـأن للقاضى بهـا . ولى الأمر ـ وحده ـ يملك سلطة العقاب حالا فى كل ما يتصل بالمصلحة العامة ، لا ينتظر قضاء ولا دعاوى ولا متظلمين ولا دفوع . ذلك حقه الذى كفله له فقهاء المسلمين . علماء الأحناف أعطوا ولى الأمر حق القتل تعزيرا ، دون تقيد بقواعد الاجراءات الشرعية للقتل حدا . انه القتل سياسة ، كما استقر عليه رأى العلماء الأحناف ..

ساء السلطان أن القاضى ـ بما فعله ، وما قضى به ـ خرج عن حدود اختصاصه وسلطانه . دس أنفه فيما ليس من شأنه ، تدخل فيما لا يعنيه . تناسى وضعه الوظيفي والاجتماعى بالقياس الى حضرة السلطان . كما وضع السلطان وفتاة مسكينة فى منزلة واحدة ..

أمر ، فأتى به الأجناد مصفدا بالقيود ..

قال له السلطان :

ـ شرفتك بتحقيق العدل بين الناس ، فكان ثوابى أن نقضت عهدك لى ..

غالب الشيخ جلال القاياتى قلقه :

ـ وما ذاك ؟..

شابت صوت السلطان حدة :

ـ ألم تأو عائشة عندك ؟..

قال الشيخ القاياتى :

ـ هذه فتاة مسكينة ..

مال السلطان بأعلى جسده ، كأنه يهم بالقيام :

ـ ألم تحرضها على الفرار من القلعة ؟..

داخل قلق القاضى خوف :

ـ لم تكن محبوسة ، فأحرضها على الفرار ..

ـ الزمناها البقاء بيننا .. فلماذا قضيت بنزولها الى القاهرة ؟ .

قال القاضى وهو يلتفت الى الجالسين والقيام حوله :

ـ لم يكن قضاء .. طلبت معونتى فساعدتها ..

ـ اذن أخبرتك بأمرنا .. ومع ذلك فقد نقضته ..

اصطنع القاياتى ابتسامة تطمين :

ـ يا مولاى .. الأمر ليس بهذه الخطورة ..

صرخ :

ـ تهون من خيانة الأمانة ؟!..

علا صوت القاضى ، كأنه أيس من الحياة ، وجعل عينيه فى عين السلطان :

ـ علينا ان نتقى الله ، فلا نتقى سواه ..

(فصل)

سأل السلطان عن أحوال القاضى وتصرفاته ، فعرف ما لم يكن يعرف . تغاضى عن سطوة القاضى على حق السلطان ، وانشغل بما بلغه عن تصرفات القاضى . تكشف من معايبه ومثالبه ما لم يكن معروفا ولا معلنا من قبل ..

قيل أنه ادعى الصلاح والتقوى ، والحكم بما شرع الله ، الى أن أراد الله اظهار حقيقته . فما كان يصلى ولا يصوم ، وما رآه أحد ينهض من مكانه فى البيت ، أو فى ديوان العدل ، لأداء فريضة . ولم يكن يأبه بدوس النجاسات ، ثم لا يتطهر . وكان فاسد العقيدة ، دهرياً ، يستهزىء بأمور الشريعة ، ويتهاون فيها ، ولا يلتزم بأحكام الشرع ، ولا بدين الحق ، ولا يحرم ما حرمه الله ورسوله . وخالف ما كان مأمولا من رجل عمله أن يأمر الناس بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، وعن الرشا والزور وأكل الأموال بالباطل . وركب الشطط فى اشاعة الفساد . وعلى تغيير كتاب الله ـ سبحانه ـ وتبديل سنة رسوله العظيم ، ومخالفة دعوته ، وافساد شريعته ، وابتداع الضلالات . وخرج عن الحد فى الافتاء بما ليس له به علم ، والقضاء فيما ليس من شأنه . وتاجر ،وقضى حوائج الناس بالرشوة ، وزور فى الأقضية ، وحجج الاوقاف ، وتصرف فى أموال الأحباس ، وأكل حقوق الضعفاء والمظلومين ، ودفع اليه المتقاضون بالرشاوى لاستمالته ، والحكم لهم وعلى خصومهم بغير الحق . وحاز لنفسه آلاف الدنانير ، وتركات الكثير من الموتى ، حرم منها أصحابها ووارثيها ، وأضاف الى أملاكه أماكن موقوفة ، وضبط فى بيته أموال كثيرة ومجوهرات ونفائس ، بما لا يتفق مع دخله وراتبه .

(فصل فيما جرى للشيخ القاياتى ، لسوء افعاله)

قال السلطان خليل :

ـ لو ان القاضى الملعون قد اكتفى بدخول ساحتى .. كنت سأعفو عنه بعد توبيخه .. اما وانه قد ارتكب كل ما بلغنى من بذل ورشا وبرطلة واعتداء على شرع الله .. فانه لابد ان يعاقب بجزاء المجرمين ! .

وقبض على ضياع القاضى جلال القاياتى واملاكه ، وحبس سائر اولاده . وامر بانزاله من القلعة مقيدا فى وسط النهار . فأركب على بغل ، والجند حوله بالرماح والسيوف . والعوام مزدحمون على التفرج عليه ..

اخترق الموكب شوارع القاهرة . ثم اعيد القاضى الى القلعة بالهيئة نفسها ، عبرة لمن تسول له نفسه مناهضة السلطان ، او مخالفة اوامره . ثم حلقت ـ فى حرم قلعة الجبل ـ لحية القاضى ، وسملت عيناه ، وخلعت اضراسه ، وخزم انفه ، وقطعت اذناه ، وشهر به ثانية فى الأسواق ، والمنادى ينادى :

ـ هذا جزاء من يقضى بالباطل !..

ثم اودع السجن ، حتى هلك ..

وقيل انه ـ بعد موته ـ اخرج ، وصلب على باب زويلة ثلاثة أيام ، حتى تعفنت جثته . ثم أحرق مع خشبته ..

مارس السلطان حقه فى عزل القاضى ، وفى تأديبه . القاضى ينيب عن الخليفة ، فالسلطان ، فى تحقيق العدل ، واقامة الشرع . من حق الذى عين ان يمارس حق الاستغناء فيمن عينه . سلطة الأصيل على النائب فى حق عزله وتأديبه . مارس السلطان حقا من حقوقه ..

اما من اتهموا بتحريض عائشة على استصراخ القاضى من التجار والحرفيين وأبناء الناس ، فقد أمر السلطان بايداعهم السجن . ظلوا فيه لأيام ، ثم اعمل فيهم المشاعلى عمله ..

(فصل)

نال القاضى جلال القاياتى جزاء ما ارتكبه من افعال شنيعة . لكن ابناء الشميخونية غاب عنهم ما كان يضمره الرجل ويفعله من نيات

ومخاز لا حصر لها . روت مصادر مشكوك فيما ترويه أن القاضي امتنع اشد الامتناع عن تولى منصب القضاء ، وادعى التعفف فيه . ثم اجاب بعد اكراه بشرط أن لا يأخذ راتبا ولا منحة على ذلك . وكان ينفق على بيته من بساتين له صغيرة بجهة المحمودية ..

قيل أنه كان عالما فاضلا ، عارفا بأمور دينه ، بالشرائع والسنن ومذاهب اهل السنة واهل البيت ، حتى ما بطل استخدامه والعمل به . وكان كثير التلاوة والصلاة والقيام ، مع زهد دائم ، وعبادة متصلة ، وورع ، وتواضع ، وحسن أخلاق ، واقتداء بالسلف الصالح ..

وقيل انه كان من اعدل القضاة واقومهم بالحق . وانه كان مشكور السيرة فى احكامه ونقضه وابرامه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . سلك طريق العدل ، واقام الشريعة والسنة ، وابطل البدع والمنكرات ، وعنى بالسؤال عن الشهود ، والتحقق من استيعابهم ، ومنع الشهود المأجورين من أداء الشهادة . واذا أتت اليه الظلامة ، أزيلت فى الحال . لا يسمع لأحد المتخاصمين ما لم يمكن للآخر . ويتخوف من أن يعدل غضبه عن عدل ، أو يهاجم به رضاه عن اضاعة حق ..

وقيل انه لم يسع يوما من الدهر بشر فى حق احد ، ولا فى حق من يحاول اذيته ، ولا سعى بقطع رزق احد ، ولا بتجريمه . وله بر معروف ، وصدقات ، واحسان للفقراء ، ويتصدق على الأرامل والأيتام ، فلا يراه احد ..

اذا ازم بيته ، فبين خزائن الكتب . بين يديه دواة وأوراق وكتب . وكان له مجلس — فى باحة البيت — يفيض بالمذاكرة فى انواع العلوم الشرعية والنحوية والأدبية ، يحضره الفقهاء والمتكلمون والقراء واهل الجدل واصحاب الحديث والنحاة والشهود . ويحضره من يريد من أولاد الناس والعوام . وكان السلطان ينزل بنفسه الى بيته فى الركبية — بين فترة قصيرة واخرى — يستفتيه ، وينصت الى وعظه وأحاديثه ..

وقيل أن عنده علم المستورات وبواطن المعلومات ، وان لم يحاول استعمال ذلك فيما يؤذى الآخرين ، وانه لم يترك اموالا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئا من أنواع الاملاك . وكان متقللا من الدنيا ، لا يركب البراذين ، ولا يلبس الرقيق ، ولا يأكل النقى ، ولا يتخذ حاجبا ، انما هو — كما يحرص — واحد من آحاد الناس ، يحيا حياتهم ، ويحل مشكلاتهم ، ويذاكرونه بالعلم ، ويذكرونه آلاء

الله عليه ، واحسانه اليه ، ولا يغلق باب دار العدل ، أو داره الخاصة ، عن حوائج الناس ، وما يعنيهم على أيامهم ومصالحهم ..

وقيل ان الناس تعزوا بأنه مات شهيدا .

(فصل فى تولى السلطان خليل امر القضاء بنفسه)

فاعلم أن السلطان خليل ازمع الا يترك القضاء للقضاة ، يقطعون فيه بنوازع شخصية . رسم بأن يباشر القضاء بنفسه ، فلا يأتى الجور من حيث ينبغى ان يأتى الخير ، أو يجىء الفساد من حيث يأتى الصلاح . صار يجلس للمظالم بنفسه ، فى دار العدل ، يومين من كل أسبوع ، على سرير ملكه المصنوع من العاج والأبنوس ، بين يديه القضاة . عن يمينه الشيخ عبد الرحيم المنسى ، القاضى الجديد للشافعية ، والشيخ نعمان الغريب ، قاضى قضاة الحنفية ، والشيخ شعبان ابو عطوة قاضى قضاة المالكية ، والشيخ قاسم الكفراوى ، قاضى قضاة الحنابلة ، وشاهدان من المعتبرين . وعن يساره النائب الكافل ، وصاحب الشرطة ، ومتولى القاهرة ، ومن أذن لهم بالمثول بين يديه من الوزراء والامراء والأعيان ..

ينادى الحاجب فى الباب :

ــ من كانت له ظلامة .. فليتقدم !..

يدخل العوام واولاد الناس . من كانت ظلامته مشافهة أولاه انتباهه . يرسل الى الولاة ونواب القضاة بكشفها ، أو يقضى فيها بما يراه عدلا . من تظلم فى عريضة ، قراها ، أو قراها احد الوزراء . يقضى فيها بما يرى أنه الصواب . وتهدد شهود الزور ، وقال :

ــ من يشهد الزور ، عاقبته عقاب المفسدين !..

قيل أن الأعيان وأولاد الناس شكوا اليه ظلم القاضى فى احكامه ، وميله الى الرشا والبرطلة . وناشدوا السلطان أن يجلس بنفسه للمظالم ..

اما القول بانه كان يتصرف وفق هواه ، والاستشهاد فى ذلك بما لا يرقى الى مستوى التثبت ، فهو افتراء ظالم ..

كان يحقق بنفسه مظالم المواطنين وشكاواهم ، وينظر فى رقاع المتظلمين والمرافعين ، ويوقع بيده فى الرقاع ، ويخاطب الخصوم بنفسه . يعطى انتباهه جيدا لكل الأطراف ، يدقق فى الأمر ،

ولا يصدر قراره الا اذا فكر ، وأعاد التفكير . يرسو على القرار بعد أن يتحرى البواعث والملابسات . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز الا اذا أحل الحرام ، أو حرم الحلال . وكان ينآى بنفسه عن الخطأ والزلل والانحياز للعاطفة ، والفساد في الرأى ، والتأثر بغير العدل ، ويطمئن الى حكمه تماما قبل أن يصدره ، فلا يرجع فيه أبدا . عدالة السلطان من مكملات أوصافه . وقد سوى السلطان اساس الدولة خليل بين الناس بوجهه وعدله ومجلسه ..

فلما تزايد عدد المتقاضين وطالبى النصفة ورفع الظلم ، جعل فى الرحبات والأسواق دكاكين ومصاطب ، يختص بالجلوس فيها قضاة ، ولاهم نيابة عنه ، يقضون بين المتخاصمين ، يحكمون بما أنزل الله وسنة الشرع . يعطون انتباههم لمن يدعون حقا غائبا ، فان أحضروا بينتهم ، أخذت لهم بحق . وأمرهم بدرء الحدود عن الناس ما استطاعوا ، فان كان للمتهم مخرج ، خلوا سبيله ..

(فصل)

فاعلم أن السلطان خليل بن الحاج احمد كان متدينا وعالما وفاضلا . عنى برفع التهارج ، ورد التواثب ، وقمع المظالم ، ونصرة المظلوم ، وقطع الخصومات ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . وكان له فى عقاب المفسدين اختراعات مهلكات ، وان استمد أحكامه من مصادر التشريع الاسلامى : القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس . ألم بأحكام الشريعة فى كل مسألة من مسائل الدنيا : البيع والشراء والحوالة والكفالة والاجارة والوكالة والمزارعة والمساقاة والقرض والرهن والنكاح والطلاق والصيد والذباحة والأطعمة والأشربة والحدود والديات . وكان يسعى لصلاة الجمعة ماشيا ، الى المسجد الجامع الذى يؤدى فيه الفريضة ، وفى العيدين . وكان يكثر من التصدق بالدقيق والغنم والنفقات على العلماء والفقراء وذوى المسغبة .

الباب السابع

صعب على عائشة مفارقة ما اعتادت . ظلت متعلقة الخاطر بزوجها . شق عليها غيابه . تمنت ـ بينها وبين نفسها ـ لو أنه بذر فى أحشائها جنينا ، يذكرها به ، وينتظرانه معا ، حتى يعود ..

مع أن السلطان أباح لها التجوال ، داخل أسوار القلعة ، فانها لم تعد تطيق البعد عن الشيخونية ، تسرح بنظراتها فى الفضاء . تحن الى غرفتها المطلة على حدرة الحنة . نداء أمها بأن تأتى لها بالطعام ، او قلة الماء ـ من يفعل لها ذلك الآن ؟ ـ زحام شارع الصليبة وهى تغادر البيت ـ فى الصباح ـ لتشترى فولا من ناصية الركبية • عشة الدجاج، ومناشر الغسيل ، فى سطح البيت . انسحاب الظلال عند الغروب ، ليحل ـ بدلا منها ـ ظلام قاتم يبتلع الناس والأشياء . صياح الديكة من الأسطح البعيدة . حتى عواء القطط ، ونباح الكلاب ، وسعال وضحكات المارة وأصحاب الدكاكين آخر الليل ، طمأنة الجيران لها بعد اختفاء خالد عمار . قال محسن أبو طعيمية ، حاجب قصر الأمير طقشتمر الدمشقى بحدرة البقر ، انه شاهد خالدا يحث الخطى ، ذات صباح ، فى اتجاه باب النصر . لم يكن بوسعه المناداة عليه ، لشكه فى بعض الجالسين أنهم ـ ربما ـ يكونون من أعوان السلطان . وقال الشيخ عموش عوض الله ، معلم المدرسة الظاهرية بالشارع الأعظم ، انه شاهد خالدا يركب حمارا ، وخلفه مكارى ، على قناطر الأوز ، فى طريقه من الحسينية الى البعل . وأكد المعلم جرجس أبو طبق ، الطحان بالحمزاوى ، انه التقى بزوج عائشة بالقرب من قصر بشتاك . سأله عن أحواله وبواعث غيابه ، فقال انه قد اشتغل بوظيفة تأخذ كل وقته ، ووعد بالعودة الى بيته وزوجه فى اقرب وقت ..

(فصل فى دخول عائشة على الخليفة شمس الدين)

استوقف عائشة ضخامة القصر ، وقلة الواقفين فى بابه . لم تحاول التخمين ان كان خاليا أو به احد ..



قال لها الحارس :
ـ مولانا الخليفة يرفض استقبال الزوار ..
نبهتها الملاحظة الى القصر ومن يشغله . أعملت التفكير لحظات . مضت ـ بعدها ـ الى داخل القصر . أهملت نداءات الجاندرمة ، الخائفة ، حتى اطمأنت أن الجالس ـ بمفرده على سجادة وثيرة فى البهو الفسيح ـ هو الخليفة لا سواه ..
استقبلها بنظرة متسائلة ..
فاعلم أن الخليفة القاهر شمس الدين كان يلزم قلعة الجبل ، لا يغادرها . له كل التوقير والاحترام ، خليفة لرسول الله ، ومسئولا عن شرعية السلطنة .. ولكن لا أمر له ولا نهى فى شئون البلاد . حسبه أن يقال له أمير المؤمنين . سياسة البلاد من واجب ـ وحق ـ السلطان وحده ، لا يشاركه فيها أى كان . سلطة الخليفة مهملة دائما ، ليس فى عهد السلطان خليل وحده ، وانما فى عهود سابقة ، وتالية . قنع بالوجاهة الدينية والدنيوية ، ولزم قلعة الجبل ، لا يغادرها الا للمناسبات الهامة . للخليفة الخطبة ، والتسمى بأمرة المؤمنين . وللسلطان الأمر والنهى ، وقود العساكر والذود عن الثغور ، ومحاربة الاعداء ، وترتيب الوزراء والأمراء ، وله الحل والعقد فى الدولة . والشعراء يمدحون السلطان ، يقدمون اسمه على اسم الخليفة ..
قالت لنظرته المتسائلة :
ـ أنا بالله وبالخليفة أن تأخذ لى بحقى ، وتعيننى على خصمى .
تبدى التساؤل دهشة :
ـ من خصمك ؟..
فى عفوية :
ـ السلطان ..
هتف :
ـ أنت ؟! ..
أضاف ، لينهى عجبه ، والأمر برمته :
ـ لو أن ذلك صحيح ، فهو من شأن القاضى ..
قالت وهى تغالب دموعها :
ـ استغثت به ، فقتله السلطان ..
استوى الخليفة فى جلسته ، ليواجهها :
ـ هل تساعديننى على فهم ما تريدين ؟..

روت عائشة الحكاية من بدايتها . لم تهمل كبيرة ولا صغيرة ، ولا شاردة ولا واردة . كل ما اسعفها به خاطرها وذاكرتها ..

قال الخليفة فى تأثر واضح :

ـ هل انتهيت ؟..

اجهشت بالبكاء :

ـ الشوق الى اهلى يقتلنى ..

عدل الخليفة أطراف السجادة بأصابعه ، وقال :

ـ عودى الى بيتك !..

ظلت فى موضعها ، لا تريم ، ولا تصدق أن اقامتها فى القلعة انهتها كلمات الخليفة ..

كرر الخليفة قوله :

ـ عودى الى بيتك !..

خرجت عائشة كغزال فر من شباك الصيادين . هبطت الدرج مسرعة ، فكادت تنكفىء على وجهها . اطمأنت الى أمر الخليفة ، فسارت فى النور ، تطل عليها الأبراج والمشربيات والنوافذ ، ملتفة بسكون الصباح الباكر ..

قبل أن تبلغ باب القرافة ، افزعتها الصيحة :

ـ من ؟..

علم الجنادرمة بما كان من أمر الخليفة وعائشة . أعادوها الى حيث كانت ، وأبلغوا السلطان . كان قد مضى قليل على استفاقته من النوم ، كأنما لسعته عقرب . اهتز فى سريره ، وتغيرت ملامحه حالا ..

(فصل فى مواجهة السلطان للخليفة بالخيانة)

لما استدعى السلطان خليل ، الخليفة القاهر شمس الدين من قصره ، ادرك الخليفة خطورة ما استدعى من اجله ، لعلو مقام الموفد ، النائب الكافل . سبق القلق هرولته ، ونائب السلطنة يتبعه ، والجند من أمامه وحوله ..

كان السلطان قد جعل العيون والأرصاد داخل الأبراج ، وفى القصور ، وخلف الابواب ، لمراقبة الحركات المشبوهة ، والاجتماعات التى تستهدف الغدر . وحين تكومت لديه وثائق ورقاع وتبليغات

كافية ، استدعى الى قاعة الأعمدة شيخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، وأهل الدولة . ثم طلب الخليفة من قصره ..

ابتدره فى دخوله :

ـ قد ثبت عندى خيانتك ..

ذهل الخليفة ، وذهل الحضور .. وتقضت اللحظات بطيئة ، قاسية ، كأنها الموت ..

تحدث السلطان عن رسائل بعث بها الخليفة الي أمراء البلاد ، يدعوهم فيها الى مخالفة السلطان ، ويغريهم بالثورة عليه . وروى عن اجتماع الخليفة بالعديد من الأمراء ، وتحليفهم على طاعته ، وانه قال : ان السلطان أساس الدولة استولى على الأمر كرها منه ، وانه ـ من ناحيته ـ لم يقلده الا غصبا . وتحدث عن حقه فى تعيين وخلع السلاطين . وشدد على رجاله ، فملأوا ايديهم من ذخائر القصور السلطانية ، لاغراء الجند ، وتوفير اموال التآمر . وروى السلطان عن خطة تقضى باغتيال السلطان أساس الدولة ، اذا نزل للعب الكرة فى الميدان ، واعلان الخليفة شمس الدين سلطانا على البلاد ..

وفرد السلطان خرائط وأوراقا . وكشف عن أسلحة مختلفة الأنواع ، ضبطت فى قصر الخليفة ، وفى بيوت المتآمرين . وزاد ذهول القوم لما اكد السلطان أن الخليفة شمس الدين اكثر ـ فى الأعوام الاخيرة ـ من شراء المماليك ، راحوا يتدربون على القسى والنشاب فى طباق القلعة ، وانه تكرر دخوله على السلطان ، وتحت ملابسه عدة الحرب ، بما يظهر نيته ..

وقال السلطان :

ـ لقد وضح أمرك .. ولكنى لا اعجل حتى يبدى الحضور رأيهم .. والله هو الحكم بينى وبينك !..

قال الخليفة :

ـ مجلسى لا يخلو ـ أحيانا ـ من بعض الشاكين والمتذمرين .. هذا كل ما فى الأمر !..

قال السلطان :

ـ هبنا صدقنا .. فهل ترضى أن تصبح مجرد العوبة ؟..

هتف الخليفة بدهشة :

ـ من قال ؟!..

دون أن يجاوز السلطان هدوءه :

ـ أنت !.. قلت للمترددين على قصرك انك بلا سـلطان .. وشكوت من حجبى لسلطتك !..

حلف الخليفة على الختمة الشريفة انه ما جرى منه شىء ، ولم يتكلم فى أمور المملكة من قريب ولا بعيد ، ولا جرى على خاطره أن الأمور تسير الى حاكم آخر غير السلطان أساس الدولة ..

أخرج السلطان من ردائه ورقة مختومة . فضها ، وقرأ ما فيها . تضمنت أنه يبغض السلطان ، وعدو لأصدقائه ، وصديق لأعدائه ، ويناصر من يسعى الى زوال دولته . وقرأ أمورا أخرى شنيعة ..

تبدى الذهول فى أعين الجالسين بقدر ما عرفوا من علو همـة الخليفة شمس الدين ، وكرم خلقه ومحتـده ، والنـأى بنفسه عن الاشتراك فى الدسائس والمؤامرات ..

بان الارتباك على وجه الخليفة ، وقال :

ـ ما تعرف منى ؟..

قال السلطان :

ـ اعرف منك المسكنة ..

وقذف السلطان بالأوراق أمامه :

ـ يهون الأمر لو انه لم يجاوز حد التصور .. لكن المؤامرة لها اتباع ومنفذون ..

امر ، فأحضر الأجناد قادة المتآمرين ، تحيط بهم القيود . وقفوا بين يدى السلطان . واجههم بتهمة السعى فى نقض المملكة ، وهلاك سلطانها ..

لاذوا بصمت خائف ..

قال لأكبرهم سنا :

ـ انطق !..

قال الرجل ..

ـ نحن عبيد مولانا السلطان ..

قال السلطان :

ـ هكذا المجرم حين تنكشف جريمته ..

واتجه الى الخليفة بعين نارية :

ـ أنت لم تقتنع بأبهة الخـلافة ، فاعتبرت نفسـك شريكا فى الحكم ..

قال الخليفة لمجرد ان يجاوز الحصار :

ـ الخليفة يلى النبى فى مكانته ..

اضاف موضحا :
ـ نحن خليفة الله على العباد فى تنفيذ احكامه ..
قام السلطان ، فانفض المجلس :
ـ ونحن مفوضون فى ذلك بتوكيل منك ..

(فصـــل)

أما القول بأن الخليفة أبدى عدم رضاه على ما حدث ، ولـكنه كتم تذمره لعدم قدرته على أن يفعل شيئا ، فهو قول على الخليفة ، وليس له . الخليفة رأس الدولة الاسلامية ، يعين سلاطينها ، وله اليد الطولى فى شئونها . ان لم يمتلك أمر نفسه ، فما شأنه بأمور الآخرين ؟..

وقع السلطان سجلا بما حدث . قرىء على المنابر . يهتم الخليفة بالخيانة والغدر ، ويسقط نعوته ..

لم يحاول السلطان أن يتشفى فى الخليفة القاهر شمس الدين . امر ، فارتدى ملابسه ، وتعمم ، وطيلس وجهه ، وركب جوادا ــ يحيط به الجنود ــ شق الشوارع من الرميلة الى باب النصر . ثم اجتاز ــ فى العودة ــ شوارع أخرى ، ليراه العوام ، يتأكدوا انه لم يتعرض لضغط أو تعذيب ..

عرف السلطان أساس الدولة للخليفة المخلوع قدره ، فأولاه حقه من التوقير والاحترام ، وترك له حرية التجول داخل أسوار القلعة ، فلا ينزل منها . اسكنه برج الرملة ، المطل على المقطم . وخصص له المخصصات ، وان قالت مزاعم أن البرج لم يكن سوى سجن للخليفة. دللت على زعمها بأنه لم يغادر البرج حتى أدركته الوفاة ..

وقيل ان السلطان ادخله مبنى « الحراقة » الموصل بين باب السلسلة واسطبلات السلطان . سجن العصاة والمتآمرين من الأمراء الكبار ومقدمى الالوف ، يظلون داخله حتى يرسم السلطان بالعفـو عنهم ، أو بهلاكهم . وقيل أن الباب لم يكن يفتح عليه الا مرة واحدة كل ليلة ، يدفع له فيها قراقيش وماء ، حتى هـلك . وقيـل ان السلطان كان ينوى قتل الخليفة ، ولـكنه خشى من عواقب ذلك التصرف لو أتاه . وقيل انه قتل الخليفة بالفعل . امر خاصته ، فخنقوه فى عمامته ، وان حظر افشاء الخبر . وقيل انه اودعه جب

قلعة الجبل ، فلم يغادره الى أن مات . وثمة مزاعم انه فضل أن يقذف بنفسه من أسوار القلعة ، اتقاء التعذيب الذى بلغ منتهاه ..

واحتاط الأجناد على أعوان الخليفة من الأمراء والحجاب والخدم. ضرب بعضهم بالمقارع . واقتيدوا جميعا الى سجن القلعة ، فانقطعت اخبارهم ..

(فصــل)

قيل أن العوام انقلبوا – فى داخلهم – على السلطان خليل ، ومالوا الى الخليفة المخلوع . تذكروا علمه وأدبه وحبه لمجالس العلم والعلماء. وجدوا أنهم لم يروا منه ما يشين . اشتهر بالهيبة ، وحب اهــل الخير والعقل ، ومنادمة القضاةوالفقهاء والعلماء وذوى الرأىوالتجربة والعبر . فاذا دخل عليه أحد العلماء ، قام اليه ، واجلسه بجانبه ، وانصت – بتأدب – الى كلماته . وانكر تقبيل العلماء ليده ، لأنهم صفوة الأمة . يلازم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته . ويواظب على أداء فريضة الحج ، وينفق فى وجوه الخير ، ويستقبل القــراء لتلاوة القرآن ، والوعاظ لرواية الحكم والعبر ، ويكثر من الصدقات والأوقاف ، ومن شراء المصاحف والكتب ، لا يشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ..

قد لا يبعد ذلك كله عن الصواب . ربما هو الحقيقة بعينها . غير انه يؤخذ على سياسة الخليفة القاهر شمس الدين تدخله فيما ليس من اختصاصه ، وانصاته لتدبيرات الوشــاة والمتــآمرين ، ومشاركته لهم فيما ازمعوا ودبروا ، حتى انكشف المستور ، فحقت المساءلة ..

الباب الثامن

وفد الى القاهرة ـ ذات صباح ـ موكب الخليفة الجديد ، انهادى أبو العباس . أفتى علماء دمشق بصحة نسبه ، وانه من نسل العباس ..

خرجت الجماهير لملاقاته . رفعت الأعلام والزينات والبيارق ، واضيئت القناديل ، ونصبت الخيام فى أحياء مصر والقاهرة ، وفرشت الطنافس والفرش الفاخرة ، والوسائد الحريرية . وامتلأت الأسواق والدكاكين بعلائم البهرجة . ووضعت القلاع الخشبية على طول الطريق ، من باب النصر الى باب السلسلة ، من القلعة ، وزينت الأسواق والمتفرجات فى البلاد المصرية . ومدت الأسمطة لاطعام الخاص والعام . ودار السقاة بأوانى الذهب والفضة والبلور المملوءة بالسكر المذاب . وفرقت الأموال ، وانفقت الصدقات ، وأعتقت الرقاب . وتفاخر الأمراء فى تزيين القلاع . وجمل الناس واجهات البيوت والدكاكين . وأقبل أهل الريف الى القاهرة للفرجة على قدوم الخليفة ، وعلى الزينة . وحضرت سائر مغانى العرب من أعمال مصر كلها . وخرج الناس وقد تزينوا بالحلى والجواهر واللآلىء والحرير . واحتشدوا على أسطح المنازل . وخرج العساكر وسائر الناس على طبقاتهم . واقيمت الخيام من الصالحية . وخرج الوزراء والأمراء ورجال الدولة والقضاة الأربعة والشهود والرؤساء وأعيان مشايخ العلماء والقراء وخليفة سيدى أحمد البدوى ، وخليفة سيدى عبد القادر الجيلانى ، واهل العراق من الصوفية ، والمؤذنون الدواخل والوعاظ . وخرج المسلمون بالقرآن ، والمسيحيون بالانجيل ، واليهود بالتوراة ..

دخل الخليفة من باب النصر . ركب من يستحق الركوب . مشى من لا تأذن رتبته بغير المشى . ماجت الطرق على الجانبين بالنظارة والطبول والمزامير وزغاريد النساء . الجياد عليها سروج بالذهب والفضة ، مرصعة بالجواهر . فى أعناقها أطواق الذهب وقلائد العنبر . فى أرجلها خلاخل من الذهب والفضة ايضا . نثر الناس على الموكب اللوز والسكر ، ونثر عليهم خاصة السلطان مبلغ عشرين الف



دينار . وأمطرت السماء ، فلاذ بعض الناس بحوائط البيوت ، وان تفاءلوا جميعا بيمن الخلافة الجديدة ..

ضربت البشائر بقلعة الجبل ..

اطلقت المدافع والضربزانات والبنادق من فوق الاسوار . ودقت النوبة السلطانية . ودقت الكاسات والنقاريات . وعلت التكبيرات حتى تزلزلت الأرض ، وضربت النوبة من السلطان ، والنائب الكافل ، وسائر الوزراء والأمراء . وضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور والدور فى حرم القلعة ..

لما وصل الركب الى القلعة ، استقبله السلطان ــ تأكيدا للاحترام والتوقير ــ على الباب الخارجي . صحبه ومن معه الى قاعة الأعمدة ، فأعاد مرافقو الخليفة الشهادة بصحة نسبه ..

انزل السلطان خليفة المسلمين بالبرج الكبير . وانزل حريمه وأقاربه وخاصته وحجابه وخدمه بدور القلعة . وفرض لهم الأرزاق الدارة والاحسان . وعين الأعوان فى وظائف مختلفة ..

فى آخر الليل ، احضرت المغانى ، وارباب الآلات والملاهى ، وأصحاب الملعوب . ووقدت وقدة عظيمة قبالة الايوان الكبير ، وملئت فسقية القصر سكرا بماء الليمون . ووقف رؤوس النوبة على الفسقية ، يفرقون طاسات السكر على العوام . واحرقت حراقة نفط بالرميلة . وكانت ليلة تحدثت عنها مصر والقاهرة لأعوام تالية ..

(فصل فى مبايعة الهادى ابى العباس خليفة على مصر)

بعد اربعة أيام من وصول الخليفة الهادى ابى العباس ، جلس السلطان أساس الدولة خليل بن الحاج احمد بالايوان ، وأعيان الدولة بجمعهم ..

استفتح القراء بآيات القرآن الكريم . اعيد قراءة نسب الخليفة. بايعه السلطان ، وتبعه فى المبايعة جميع الناس ، وارتدى الخليفة خلعته : جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق ذهبى ، وسيف بداوى ..

فى يوم الجمعة التالى ، خرج الخليفة ، عليه ثياب سود ، الى الجامع بالقلعة . استفتح ، فقرأ سورة الفتح . وخطب خطبة بليغة ، ذكر فيها الله سبحانه وتعالى ، وصلى على رسوله الكريم ، وترضى

عن الصحابة ، وذكر شرف بنى العباس . ثم أشاد بالعمارة التى أحدثها السلطان خليل فى بلاده . وطالب الوزراء والأمراء وسائر الناس بنصرته ، وتأييد حكمه ، فأمن المصلون على كلامه .. ودعا السلطان الى مواصلة ما اشتهر به من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وحسن سياسة الرعية ، والنظر فى أحوالهم ، والاحسان اليهم ، ودفع الضرر عنهم ، وسد الثغور ، وحماية البيضة ، وتدبير المملكة ، وتجهيز الجيوش ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية عباد الله ، واقامة الصلوات ، وجباية الخراج ..

كتب الخليفة بذلك سجلا ، قرىء على منابر المساجد والجوامع فى مصر والقاهرة ، وفى المدن الأخرى ..

ثم نزل موكب السلطان من القلعة ، فشق القاهرة ،تحوطه الأبهة ، والوزراء والأمراء مشاة بين يديه ، وأولاد الناس والعوام على الجانبين ، يدعون له ، ولأيام حكمه ، بالهناءة والأمان ..

ظل السلطان أساس الدولة خليل ـ برسم الخلافة ـ حاكما شرعيا . اختاره خليفة المسلمين لحكم البلاد والعباد ، لا فى مصر وحدها ، وانما فى البلاد الاسلامية كافة ، وما يضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . فوض للسلطان أمور الملك الذى استخلفه الله تعالى عليه ، خلافة عنه فى دينه ودنياه ، بمشهد من الوزراء والأمراء وأهل العمامة والقلم وأصحاب السيوف والاعلام ..

(فصل)

قال السلطان للخليفة ، صبيحة نزوله فى القلعة :

ـ ارى ان تحتجب عن الناس ..

اضاف للتساؤل فى عين الخليفة :

ـ يجب أن تكون لك فى أذهانهم صورة مهيبة ..

امر السلطان خليل بقطع الدعاء للخليفة القاهر شمس الدين ، وان يذكر بدلا عنه الخليفة الهادى أبى العباس ، واظهر للخليفة الجديد احترامه الزائد ، وان رجاه ـ فى تأدب ـ الا يتكلم ، منذ الحين ، فى شىء ، الا بعد مراجعته ، لا يشارك فى امر ، وانما يترك للسلطان شئون الحكم والمملكة ..

اقام الخليفة فى قصره ، لا يركب ولا يدخل اليه أحد ، الا الخدم.

لم يجعل له السلطان أمرا ولا نهيا ، ولا أوكل اليه أمرا ما . وقيل إنه كان لا يجلس الا اذا أذنه السلطان ..

أمن السلطان خليل شر الخليفة المعزول ، ونال تأييد الخليفة الجديد ، وانصرف الى أحواله الداخلية ، فعمر وبنى وشيد ، وضبط أمور الناس ، وحفظ دماءهم وأموالهم ، وأضاف الى البلاد ما لم يكن فيها ..

لم يعد للخليفة راى فى المراسيم ولا تنفيذ الأحكام ، ولا عدول الشهود ، ولا تقليد النواب . أصبح الى السلطان خليل النظر فى جميع الأمور ، يرسم بما يراه مناسبا ، يوافق ويمنع ، يعطى ويحجب ، يبت فى كل الأمور بنفسه ، يسأل ويناقش ويقلب الرأى ، ثم يرسم بالرأى الصواب . حتى رقاع المتظلمين لم تعد ترفع باسم الخليفة . انما ترفع الى مقام السلطان ، تقرأ عليه ، أو يطالعها بنفسه ، فيقضى بالعدل ، وما يراه مناسبا . وكان يعمل من صدر النهار الى انبلاجة الصباح ، ينظر بنفسه شئون الخراج ووجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس . وحرص على استجلاب خواطر الناس ، فأبطل الرمايات ، والسلف على البرسيم والشعير . كما أبطل مكوس الثوم والفاصوليا .

وعنى باعادة الهدوء الى قلعة الجبل ، وتقصى الشائعات ، ومحاربتها ، واعادة الوئام الى صفوف مماليكه . لم يتردد فى قطع لسان أحد الأعيان ، لأنه أشاع — فى جلسة سمر — ما اعتبره السلطان تشويها لصورة المملكة .

الباب التاسع

فرغ السلطان خليل من مجلسه بقاعة الأعمدة . ناقش ـ بنفس هادئة ـ أمراء المشورة ، والقرباء من السلطان ، ومن دعت الحاجة الى حضوره ، فيما عرضوه عليه . حتى الثالثة من النهار أو نحوها ، اعانه الأمراء الوقوف على القيام . ثم دخل القصور الجوانية ، ومنها الى دار حريمه ونسائه ..

مال ـ دون توقع ـ الى دور الحريم . دخل من باب «النحاس». أولى نسائه خوندجنات . لم يكن يدخل اليها الا الاثنين والخميس من كل اسبوع . وكان اليوم أحدا . فاجأ حتى الخوند نفسها . وكانت تسترخى بفراشها فى استراحة القيلولة ..

عادة السلطان ـ اذا صلى العصر ـ أن يجلس لأهل بيته . من حل دورها من زوجاته الأربع . لثلاث منهن ـ كل أسبوع ـ يومان ، ولواحدة يوم واحد . خاتون عابدة الحق لزمت الفراش بمرض ، فأبقى عليها السلطان ، ولم يسرحها . جعل يومها خلوة لقراءة أيام الناس وسيرهم وأشعارهم ..

ابتدرها قبل أن تهب من رقدتها :

ـ كيف استطعت أن تصلي الى عائشة ؟..

غالبت ترددها ، ثم قالت :

ـ انها هى التى اتصلت بى ..

أضافت للشر فى ملامحه :

ـ أتى لى بها الطواشي ضرغام ..

وهو يقاوم غضبه :

ـ لماذا ؟..

ـ قالت انها لا تحب الاقامة فى القلعة ..

ـ وماذا قلت لها ؟..

شغلت بجمع شتات نفسها :

ـ هل تحب أنت ذلك ؟..

ـ لا شأن لك بما احب واكره .. هل حاولت مساعدتها على الفرار ؟..



ـ من ماذا ؟..
صرخ :
ـ لا شأن لك !.. وعدتها بانزالها من القلعة ..
بدا عليها خوف :
ـ أنا لم أفعل شيئا ..
ـ كنت تعدين لانزالها ..
ـ صدقني .. وعدتها .. ثم لم أفعل شيئا ..
ـ ألم أنذرك بألا تفتحي بابك لمسلم أو ذمى ؟..
أضاف وهو يدفعها بيديه أمامه :
ـ لم أشأ ـ بعد وفاة الوحيد أن أطلقك وأنزلك من القلعة . تركت لك مخصصاتك ، وأبقيت على خدمك !..
وقال في غضبه :
ـ لقد غلبتني على أمرى ، وشاركتني فى سلطانى !..
وتداخلت فى غضبه سخرية :
ـ لم يبق الا أن تجلسي للمظالم ، وتنظرى فى رقاع الناس !..
قيل أنه حين عقد عليها السلطان خليل ، شهدت البلاد من الولائم والأفراح ما لم يعهد بمثله . احتفل بجهازها أتم احتفال . وكان جهازها بألف ألف دينار . وذبح فى العرس من الأغنام والدجاج والأوز والبقر والخيل ما تبلغ قيمته ثلاثين ألف دينار . وتواصل العرس سبعة أيام بلياليها ، حافلة بالغناء والطرب ، واجتمعت أجواق المغانى من كل حارات مصر والقاهرة ، واصطفت المغانى النساء على الدكاكين ، من باب النصر الى القلعة . وأوقد التجار شموعا كثيرة على حوانيتهم ، وتخلق الناس بالزعفران من الدروب والعطوف ، ونثروا على الموكب أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى . وطلعت جنات الى القلعة بجواريها وطواشيها ، وصارت خوند الكبرى وصاحبة القاعة ..
وقيل أنها اشترطت ان يذكر فى العقد أنه لا يتزوج عليها ، ولا يتسرى . وكتب ما اشترطت ، ووقع عليه شهود . وظل حريصا على ذلك ، حتى مات ابنه الوحيد . فرخص لنفسه الزواج ـ باذن منها فى البداية ـ من ثانية لحقها المرض ، فثالثة . أما الرابعة فكان زواجه منها لبواعث سياسية . تعاظم خطر والى الشام ، فتقدم لصغرى بناته ، دون ان يسأل عما تملك من جمال وكمال ، ولا ما اذا كانت تصلح أما لأولاده ..

وقيل أن السلطان خليل لم يدم على محبة امراة سواها . حتى زوجاته الثلاث كن يعلمن ذلك ، ويتفهمنه ، ويبذلن الود لها . وكان يعرض عليها ، ويصدر عن رايها ، ولا يرد لها كلمة . وصار لها من النفوذ ، ما لم يكن لرجال ونساء غيرها . تقضى أعظم الأمور ، فلا يرد لها السلطان قضاء ، وتكلمه فى الحوائج ، فلا يرفض لها رايا ولا طلبا . وقيل أن الأمر كله كان عن رأى خوندجنات ..

وعندما ادرك الوزراء والأمراء والخاصة ، مدى نفوذها وسطوتها وتأثيرها فى نفس السلطان ، صاروا يلجأون اليها ، يوسطونها لقضاء حوائجهم وما يبتغون . وضعوها فى مقام السلطان . كلمتها لا ترد ، وشفاعتها مقبولة ..

ولكن السلطان ـ بعد أن خلصت له الأمور ـ غاظه تدخل النساء فى سياسة المملكة ، ففل يدها عن المداخلة فى امر الملك . حدد اقامتها بدور الحريم . راقب حركاتها وسكناتها ، فهى لا تتصل بأحد ، ولا يزورها احد . حتى الاماء والخدم لا يتصلن بها الا بمعرفة السلطان . ونهى الوزراء والأمراء والخاصة عن الدخول اليها ، أو مجرد الوقوف ببابها . رأسا ، فلا يقف ببابها أحد من قواده ، او من خاصته او خدمه ، والا يضرب عنقه . ومنع جوارى القصور الجوانية من كلامها ، وان قيل أن السلطان لم يكن يطأ جارية من جواريه الا خفية ، اتقاء غضبها ..

ومع ذلك ، فقد ظلت مواكب السائلين وطالبى الحاجات الى باب خوند جنات ، فى كل يوم ، وربما فى كل ساعة . قصدها الناس وأرباب الدولة من مصر والقاهرة والريف لقضاء حوائجهم . من يستغيث بالمرأة تلبى استغاثته بلا ابطاء ..

اختار السلطان من خاصة خدم المراة عيونا له عليها ، يبلغنه بما يجرى داخل جناحها ، ما تحدث به خاصتها وزوارها ، ما تأخذه من هدايا وما تشتريه . ابلغته واحدة بسعى خوند جنات للقاء عائشة. عرفت بأمر وجودها فى قلعة الجبل . رات فيها جمالا وهيئة . سألت : من تكون ؟. أخبرها الجوارى بقصتها ، فخافت فساد زوجها . لم يؤلمها دعوة السلطان لها لموقع صادفته فى نفسه ، انما آلمها انها من آحاد الناس ، والصفة المقبولة لها فى قلعة الجبل أن تكون خادما فى أحد قصورها ..

لم تغضب خوند جنات حين تزوج السلطان عليها بثانية وثالثة . الاصول مملوكية ، ومن حقه ـ بعد وفاة وحيدهما ـ أن يفكر فى ابن

يخلفه . لم يشغل بالها حتى حب السلطان للجوارى ، حبش ومولدات وسود ، من أسواق القاهرة ، وهدايا ومجلوبات من بلاد بعيدة . الجارية لها دورها داخل القصور ، والقصور لا تحيا بدون الطواشى والخصيان والجوارى . خدمة السادة هى المبدأ والمنتهى . كانت تتصور أن السلطان ربما تستهويه جارية فى القاعات السبع ، وربما عقد عليها ، لينجب منها البنين والبنات . لكن الذى رفضت تصوره ، ولم يخطر لها ببال ، أن تستميل قلبالسلطان امرأة من بنات العوام. أبوها قفاص ، وزوجها نساخ ، واقاربها مجهولون ، وحياتها — فى حلرة الحنة ـ لا تبيح ، ولا تتيح لها أن تلزم القلعة ، وتقيم فى دورها ..

وعت خوند جنات الأمر من بداياته ، وخشت عقاب السلطان اذا دفعت عائشة للنزول من القلعة . لم تقتحم الأمر ، ولا عالجته بقسوة. اعملت الصبر والحيلة ، فبدت كالموافقة على توسل عائشة بأن تنزل الى الشيخونية . لكن التدبير افتضح قبل أن يخطو خطوته الأولى ..

اغلق عليها السلطان باب الحجرة ، واقترب منها بسكين وعين نارية . دفعها الى الحائط ، وراح ـ وسط صراخها وتوسلاتها ـ يسلخ جلدها عنها .

تعالت صيحات الخدم والحشم من وراء الباب ، ترجو وتتوسل وتطلب العفو . لم يأبه السلطان الا بأن يتم ما بداه .. أصم أذنيه عن كل ما حوله ، وترك السكين تجرى فى الجسد المنتفض بما انتواه وخطط له ..

عندما قذف بالسكين الى الأرض ، كان قد سلخ جسمها تماما . ثم شرع يحشو جلدها بما وصلت اليه يداه من ثياب . وخرج الى الوجوه الخائفة ، المشفقة ، بعين مصبوغة بالدم ..

(فصل)

اذهل الناس — لما فشا النبأ ـ انها احب زوجات السلطان اليه ، واول من حركت فى قلبه وتر الأبوة . رزق منها بولد وحيد . مات فى سن الطفولة . وحين تزوج عليها ، استطاعت أن تجعل من نفسها صديقة لبقية الزوجات ، فلا تشاحن ولا بغضاء ..

وقيل انها كانت من خيار نساء عصرها حشمة ورياسة وعقلا ، وآدب نساء السلطان ، وأفصحهن لسانا ، واقولهن شعرا . وكانت تميل الى الصلاح والعبادة والبر والاحسان والصلات والأوقاف ..

وقيل انها كانت تحب السلطان خليل كل الحب . تخدمه بنفسها . لا تثق فى الطهاة ، ولا يعجبها مأكولاتهم ، وتبتكر له الوانا شتى من الاطعمة والمأكولات . وتكون فى خدمته دوما ، ولا تفارقه حضرا ولا سفرا من شدة محبتها له ..

الباب العاشر

ذاع الخبر ، فحصل بالبلد ضجة . لا احد يدرى من الذى سرب الخبر . ولكنه انتشر فى الرحبات والشوارع والبيـوت والحوانيت والمساجد .

اغلقت الحارات ابوابها . وترك تلاميذ المكاتب دروسهم . وخرج التجار وسائر السوقة واهل الصنائع ، يصرخون بالأسواق ، ويأمرون باغلاق الدكاكين . وقرىء البخارى فى الجوامع والمساجد ، وكثرت الأدعية من الراكعين والساجدين . وطلع النسـاء والصـغار على الأسطح ، وكشفوا رءوسهم ، وضج البلد ، وتعالى الصياح فى الدروب والعطوف ..

اجتمع الناس فى رحبة جامع الأزهر ، من اصطبل الطارمة الى مقعد الأكفانيين . ومن باب الجامع البحرى الى الخراطين . معهم طبول ، وبأيديهم نبابيت ومساوق . صعد البعض الى المآذن ، ينادون الناس ، يبلغونهم باختفاء عائشة ، يحذرون من المصير الذى يتهددها فى قلعة الجبل ..

بطلت دروس العلماء فى اروقة الأزهر . انشغل الناس باختفاء عائشة عن كل ما عداه . حتى الصلاة بطلت فى الأوقات التى تعاظمت فيها أعداد الناس . يقبلون على العلماء . يستصرخونهم السـعى لانزال عائشة من القلعة ..

قال مسعود ابو طالب الخباز بدرب الطولونى :

ــ نحن مسئولون عن عائشة حتى يرد الله غربة زوجها ..

أضاف فى تأثر :

ــ قيل ان السلطان يلح فى طلبه !.

قال بطيخة السكرى جاندرمة تكية العجمى :

ــ لماذا ؟..

قال ابو طالب :

ــ لانه عارضه فى أمر لم نقف عليه ..

قال عثمان كشك السروجى بحوض الخيل :

ــ الشاب كان فى حاله ، ولا شأن له بما فى قلعة الجبل ..

قال ابو طالب :
ــ اعدم الشرطة خالها .. وكان آخر من لاذت به من أقاربها ..
قال بطيخة السكرى :
ــ اعدم من قبله اباها ..
قال عثمان كشك :
ــ هل هو ثار بايت بين السلطان واهل المراة المسكينة !..

حضر خلق كثير من العوام واولاد الناس والفقهاء والمنشدين واصحاب اللحى وحملة العمائم وارباب النهى واهل العلم والحجا والثخانة فى الراى والبعد فى الطيش وايثار العقل وارباب الحرف ..

قلبوا الأمر على وجوهه . اعملوا رايهم فيما ينبغى عمله . استحسنوا الراى بالوقوف خارج اسوار قلعة الجبل ومناشدة السلطان ان يأذن لعائشة بالعودة الى بيتها ..

(فصل فى رجوات الناس للسلطان كى يفرج عن عائشة)

تداعى الناس من الرحبات والأسواق والشوارع والعطوف ، ومضوا الى قلعة الجبل ..

تجمع الآلاف من العوام واهل السوق والحرافيش بالرميلة وما حول القلعة ، يدعون ، ويتعطفون ، يسألون الفضل والمنة ، يرحبون انزال عائشة من القلعة ..

ظهرت وجوه لا تعرف الا عند الشر . وتربص البعض بالكثير من الوزراء والأمراء ، فأوسعوهم رجما بالحجارة ، وسبوهم ، وشتموهم . ولمح العامة الوزير سعيد منكورش يغادر ــ فى حراسة الأجناد ــ باب الاسطبل من القلعة . رماه بعضهم بالحجارة ، وحاول مماليكه انقاذه . شهروا سيوفهم فى وجوه العامة ، حتى مكنوا الوزير من الاختفاء ..

صعدت اعداد الى سطح مدرسة السلطان حسن ، ورموا منه على قلعة الجبل ، فرسم السلطان باغلاق ابواب القلعة ، كى لا يخرج منها أحد ، ولا يدخلها أحد ، ووزع أجناد الحلقة ، والأجناد البطالة ، طوائف على أبواب القلعة ، وعلى الترب ما بين القلعة وقبة النصر . وانشغل الأجناد بحفر خندق حول القلعة ، وتوعير طريق باب القرافة ، وباب الحرس ، وباب الدرفيل ، ونقلوا الى القلعة ما لا يحصى

من الأقوات والمجانيق والمكاحل ، وغيرها من عدد الحرب ومواجهة الحصار ..

(فصل)

طالب السلطان بالتباعد عن الفتنة . نادى بالأمن والأمان ، والبيع والشراء ، وأن التجار يفتحون حوانيتهم ، ويجلسون بها . وكذلك تفتح أبواب جامع الازهر ، ويفد التلاميذ لتلقى الدروس ، ويترك الناس حمل الأسلحة بالنهار .

كتب سجلا بذلك لأهل مصر والقاهرة . قرىء بميدان الرميلة ، ونودى به فى البلد ..

(فصل)

سكنت الفتنة فى مهدها .

ارتفعت القلاقل ، وهدأ الهرج . وسالم كل مخالف .

استقرت خواطر الناس ، واستبشروا ، وابتهجوا بالفرح . هاص الناس فى الشوارع والدروب ، وزاطوا . وفتح العلماء أبواب الأزهر ، وقرءوا دروسهم ، وامتلأت الأروقة بشاغليها ، وفتح الناس متاجرهم ، وتركوا أسلحتهم ، وانصرف كل لشأنه . اعتبروا نزول عائشة من قلعة الجبل ، عودتها ـ بملاءتها التى أصرت على ارتدائها ـ الى حدرة الحنة ، مناسبة بهجة وفرح لكل أبناء البلاد المصرية ..

(فصل)

قيل أن ما فعله السلطان كان حيلة ، حتى لا يستفحل الأمر . خشى من ثورة العوام عليه ، فأظهر الاذعان ، ومال الى المسايرة والملاينة ، ترقبا لفرصة أخرى تالية ، يعيد فيها عائشة الى أعز مكان فى قلعة الجبل ..

فاعلم أن السلطان لم يخل سبيل عائشة ، ويعيدها الى بيتها ، لخوف من هياج العامة . لم تصدر عن آلاف الواقفين أسفل القلعة كلمة نابية فى حق الحضرة السلطانية ، ولا هتفوا ضده . انما هى توسلات ومناشدات ، ترجو الرحمة ، وعفو القادرين . امتثل السلطان ـ لا رهبة ولا نكوصا ـ لوساطات العلماء ، وملوك الدول الأخرى ، ولميله شخصيا ـ الى العطف والمودة والعدل ..

امر ، فنزلت عائشة من القلعة الى اهلها . قال — فيما بعد — لجلسائه :

— والله ما اذنت لعائشة بمغادرة القلعة ، والعودة الى بيتها .. الا خشية أن تقول العامة ، ان استضافتى لها من جهة المقدرة !..

(فصل فيما رواه الناس عن اختفاء خالد عمار)

قيل أن ما جرى كان بتدبير من خالد عمار . اخفى مكانه ، وستر امره ، لشدة الوقت ، وملاحقة أجناد السلطان له فى كل المواضع التى يتوقعونه فيها . ولم يصل اليه جند السلطان بشر . طلبوه ، فلم يعرفوا له أثرا . فضل أن يختفى ، وان ظل على اتصال بأبناء الشيخونية والرحبات القريبة . وقيل أن السلطان خليل اعطاه امانا بواسطة آخرين ، بالا يسجنه أو يضربه أو يقتله ، على ان يظهر من مكمنه ، أو يوقف — فى الاقل — كل اتصال له بمن يشك فى ولائهم ، ومن فى نفوسهم غرض .. لكن خالد عمار ظل على اختفائه ، مع تناثر الروايات عن رؤيته فى حارات وشوارع ودور ودكاكين داخل مصر والقاهرة . قيل انه لاذ بواحدة من منارتى مسجد المؤيد ، فوق برجى باب زويلة . وقال الشيخ ناصر المحجوب التاجر بالامشاطية ، انه شاهد زوج عائشة يدخل فندق دار التفاح المواجه لباب زويلة . اخذته المفاجأة ، فلما نادى عليه كان قد غاب فى الفندق . وقال ابو الحسن الحاج ، حاجب دار طاز ، انه شاهد خالدا يتلو القرآن فى زاوية الخشابية بالجامع العتيق . واكد عبادة القصبى حارس مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح ، ان كتفه لامس كتف خالد عمار ، وهما يغادران مسجد الامير كراى المنصورى بآخر الحسينية . واشتد الأسف على فقده ، ووضع فيه الكثير من الازجال والمواليا والبلاليق ، حفظها العامة واولاد الناس ، وصاروا ينشدونها فى الاسواق والأسمار وخلف المشربيات ..

وقيل أن السلطان — بعد أن اعيا أجناده اقتحام المنازل والدور ، والتفتيش على خالد عمار اشد الطلب لاهلاكه — اعلن انه هو الذى أخفاه . وقيل أن خالد عمار كان يتصل بأصدقائه واهله اتصالا سريا ، بواسطة باعة وتجار وتلاميذ كتاتيب وعلماء دين . اكد ان عائشة لم تغب عن باله يوما ، وانه سيعود الى حدرة الحنة فى زمن قريب ، ليعيد — وزوجه — ايام الهناءة والامان ..

الباب الحادى عشر

قال السلطان أساس الدولة خليل :

ــ ان البيعة شائعة .. لنا عليهم السمع والطاعة ، ولهم علينا العدل !..

راعه أن الأعوان جبلوا على الشر ، وتشربوا بالمطامع ، وأضمروا الحقد ، والفوا المغامرة ، وتطلعوا الى الوثوب . لاحظ انحرافهم عن جادة الصواب ، لانشغالهم بتدبير الأموال ، وحبك المكائد والمؤامرات ، والتجاوز على عورات الناس ، وحرم العباد ، وتعطيل الحدود ، وسفك الدماء بغير حل ، واخذ المال بغير حق ، والاعتداء فى الحرم والابشار والأعراض ، والاثقال بالمغارم والجبايات والضرائب والمكوس ، والتمادى فى العنف والجور ..

تفشى شراء المناصب بالمال ، وقامت بين المسئولين روابط الرعاية والمحسوبية والمصاهرة . وجاء وقت اذا أخذ الجباة من الناس عشرة دنانير ، أنفقوا على أنفسهم تسعة ، وقدموا الباقى ــ كرها ــ لبيت المال ..

كان رايه ــ الذى لم يتبدل عنه ــ أنه اذا لم يباشر السلطان شئون البلاد والرعية بنفسه ، فان ذلك دليل على زوال النعم ، وخراب الملك ، وفساد الرعية . الراعى الحصيف لا يترك حملانه فى رعاية الذئاب . وأحوال نواب السلطان ، ووزرائه وأمرائه ومماليكه ، هى أهم ما يجب أن يعنى به ، ربما قبل تفقد أحوال الرعية . ان نسى ذكروه ، وان ذكر أعانوه . النواب صلة الحاكم بالمحكوم . ان أحسنوا الى الرعية ، فكأنما السلطان هو الذى احسن . وان اساءوا فكأنه هو الذى أساء .. وزوال الملك مبعثه استخدام الأراذل للأعمال الجليلة.

لاحظ السلطان ــ قبل حادثة القاضى الشهيرة ــ ان الرشوة والبراطيل قد انتشرت بين كبار موظفيه . وفطن الى انهم ائتمروا على ألا يصل اليه من علم أخبار الناس الا ما أرادوا ، فشدد على خاصته بألا يحجب عنه الناس ، حتى لا تزول البركة . والا يلقى اليه أمرا ، اذا كشفه أصابه باطلا ، فان ذلك يسقط الملك ، ويؤذى الرعية ..

وحين بلغه أن والى الفيوم انتزع الضياع من اربابها وعمارها ، واقطعها خاصته وخدمه وارباب البطالة ممن يسلطهم على الناس ، لايذائهم وتنغيص أيامهم ، فانه أمر أن يحفر الوالى بنفسه بما يساوى مساحة جسده ، وأن يدفن فى الحفرة حيا ..

أزمع – منذ سنوات – ان يصفى هؤلاء الذين أساءوا الى حكمه بتصرفات مخزية ، واتخذوه سلما الي شهواتهم ، وجمع الأموال والضياع . تكون له معهم وقفة عنيفة ، يبصرهم بالطريق الذى انصرفوا عنها ، فهو لم يحاول التفرد اذن ، ولكنه اراد الخير لشعبه. وحين بلغته أنباء الاتاوات التى فرضها قائد الجنادرة على أصحاب الدكاكين فى مصر الفسطاط ، فانه فرض عليه تعاطى السم الزعاف ، ليدرأ عن الناس شروره . واستفتى عن قاضى قضاة الحنابلة ، وامر بخنقه . رد اليه السلطان – وباقى قضاة المذاهب الأربعة – امر المظالم بمصر واعمالها ، فحقق من المظالم ما تنوء الجبال بحمله ، ان الانسان كان ظلوما جبارا . أبلغه الواشون بأنه قد استغل قربه من السلطان ، فأثرى . سار فى عمله أقبح سيرة . نصحه السلطان . طالبه بمراجعة النفس ، فما عف ولا كف . وجدد مظالم فى القضاء تذكر به ، وراح يأخذ من هذه المظالم ، ويخدم نفسه وآله بها . وكان يأخذ الرشا من قضاة الأطراف ، والمتحاكمين اليه ، ويتصرف فى أموال الوقف بالبيع ..

وازدرى الكثرة من مستشاريه ، لغلبة الرياء على آرائهم وتصرفاتهم ، واحترام القلة منهم لنزوعهم الى قول الحق ، وارتياد طريق الصواب ، وان وشت تصرفاته بغير ذلك ، مثل اغداقه على كثرة المستشارين بالنعم والهدايا والمناصب ، وعزله القلة ، وربما ايداعهم السجون . كان أعلم الناس بخطر الكثرة على القلة ، فعزل الفئة الثانية . وربما تظاهر بظلمها كى يجنبها أذى الآخرين . وعزل من أدرك ضعفه ، ووهنه ، وبطانة السوء . وعندما تحيق الشبهات بسمعة وزير ، بنظافة يده وكيف أثرى ، فان نفسه تتغير عليه ، ويلزمه بالبقاء – لفترة – فى مقبرته ، لا يغادرها . وربما طرده من وظيفته ، أو امر بحبسه فى قلعة الجبل ، حتى يبوح بالمصادر التى اتت اليه منها أمواله . فاذا تأكدت الشبهات ، رسم بحبس الوزير ، وأن تؤول أمواله وما يكتنز ، الى بيت المال ..

اما القول بأن الرشوة ظلت هى السبيل لتولى الوزارة ، فزعم يلفيه أن الوزير لم يكن يملك من امر نفسه ، ولا السلطة ، اى شيء.

جمع السلطان فى يده الأمور التى تنبو عن وظائف الأفراد ، ولا ترتبط بها . انما هى من الأمور العامة التى يتوقف عليها حفظ النظام كالقضاء وسد الثغور ، والأمر بالجهاد والدفاع ، وحفظ الأمن . أحكم السلطان خليل قبضته ، فلا يأذن حتى للهواء بأن يتخللها ، أو ينفذ منها . له الكلمة النافذة ، والرؤوس — مهما تطاولت — فهى تخشع ، الى حد الركوع ، وربما السجود ، فى مجلسه . الرأى رأيه ، فلا يأذن لأى كان بمناقشته ، أو حتى السؤال بما انتهى فيه الى قرار . الأعوان لتصريف الامور على النحو الذى يراه ، والمسعى الذى اطمأن اليه الجميع : صالح الوطن والمواطنين . مهما بدت القوانين والمراسم قاسية ، فان الخير هدفها الذى قد تخطئه الأعين ..

غير السلطان وبدل . ولى من تصور انه الأصلح . ثم لم يلبث أن تبين ضعفه أو فساده ، فبدله . ثم تيقن ان الأعوان قد يجيدون تنفيذ الأوامر ، ولكن تغيب عنهم — تماما — ملكة الرئاسة والقضاء فى الأمور على النحو الصحيح ..

ازمع أن يستقل بالأمر . يمسك بالشرق والغرب فى يده ، فلا ينصت لرأى أو مشورة . يتابع — بعين متيقظة ، وذهن واع ، وبديهة حاضرة — ما يدور فى مجلسه من أسئلة وأجوبة وشكايات . يتدبر ويقلب المسائل ، ويطيل تأملها ، حتى يصل الى الرأى الصواب . يصدر قراره بنفس مرتاحة ، لا يشغله ان أصيب — بتأثيراته القاسية — فرد أو أفراد ، صالح المجموع هدفه ومراده .

أجرى على الولاة رزقا واسعا يقــوم بهم وبمؤونتهم ، حتى لا يشرهوا الى مال الناس ، وترزق لهم من الوزراء والأمراء ، ليستظهر بهم على ما هم بسبيله ..

انفرد بالكلمة . خضع له الخاص والعام . أصبحت الأمور كلها مردودة منه واليه . استبد حتى لا تحدث فوضى ، وباشر البــلاد بنفسه أحسن مباشرة . بذل من صحته ووقته . أصبح له — غفر الله ذنبه — امارة الجيوش وكفالة القضاة ، وهــداية عبــاد الله . وقام بعمــل الوزراء ، وشــمر وجاهد فى سبيل الله ، وما قصر . وزيد فى ألقابه : المستعين بالله ، حامى الاسلام والمسلمين ، المنتصر بارادة الله ، ملــك ملوك العــرب والعجم ، كافل الــديار المصرية والحجازية ، مدبر مصالح الأمم ، معمــر المدن والثغــور والــريف والبوادى ، محب العلم والعلماء ، الناطق بالصواب والحق ..

غير وبدل فى الوظائف الكبرى . وولى من تصور انه الأصلح ، فاذا تبين ضعفه أو فساده ، بدله ..

ولما بلغه أن حيدر الشامى متولى الخراج ، اسرف فى بيت المال ، وتصرف بغير مسوغ شرعى ، بعث اليه من ينبهه الى خطورة ما فعل ، فادعى الرجل انه قد خاصم الظلم وناب واتاب ، واقسم ان يعامل الرعية بما يرضي الله . ثم حنث ـ بعد ايام ـ بيمينه ، وعاد الى مزاولة الظلم ، فأصبح بقاؤه محقق الضرر ، وعزله واجبا ، والاصلاح لا يتم الا بدونه ، ووجب خلعه ، كما يقضي بذلك الشرع الحكيم ..

وقيل انه قد أفتى فى قتل القاضي جماعة من علماء الشريعة ، فالقى من شاهق . واكدت رواية ثانية أنه خنق بعمامته ، وتدلت جثته ثلاثة أيام على باب زويلة ..

اشرف السلطان بنفسه على أمور الخراج ، وجميع وجوه الأموال والحسبة ، لا يطلق شيء الا بتوقيعه ، ولا ينفذ الا ما يرسم به ويقرره. ينظر فى الأموال بنفسه ، ويشرف على العمال . امره نافذ ، واليه الحكم فى الكافة ، وهو الذى يولى ارباب المناصب الدينية والديوانية. شحب دور المحتسب واعوانه وغلمانه وعرفائه . لم يعد لدخولهم الأسواق نفس الأثر الذى كان من قبل . تغيرت الصورة بتعدد نزول السلطان من قلعة الجبل . لم يعد للمحتسب من وظيفته الا الاسم . خرج السلطان يؤدى ما تقاصر المحتسب عن ادائه . يراقب الموازين والمكاييل ، ويمنع الدلالين والسماسرة ، ويتأمل آداب الطريق ، ويناقش الحسبة على الجبانين والزياتين والدقاقين والعلافين والبرازين والطحانين والخبازين والصباغين وغيرهم . ورد مظالم كثيرة ، واسقط مكوسا استحدثها ـ بغير اذن منه ـ اعوان المحتسب، وحكام الولايات ..

عمل السلطان خليل من اجل الدولة ، والناس ، وخدم قدر طاقته ، وحكم بما يقضى الله ورسوله ، وعاهد نفسه على أن يسلم البلاد بمثل ما وجدها عليه ، ولا يفرط فى شبر من ارضها لأحد ، ويترك لله ـ سبحانه ـ أمر تقدير خدماته ، فنأت جوانب الدولة عن طوارق الذل والمهانة ، وعمرت الأرض ، واخصبت البلاد ، وكثرت الأموال عند جباة الخراج ، وقويت الجنود ، واشحنت الثغور والأطراف ، واستنبطت المياه ، وفتحت الأبواب ، وسهل الحجاب ، واقتص للظالم من المظلوم ، ومنعت المظالم ، واخذ الشيء مما حل وطاب ، فقسم بالحق والعدل ، وامن سبيل الناس ، لا يلحقهم خوف فى ليل او نهار ..

ولأن العدالة تثير المجرمين ، توغر صدورهم ، تحرك مكامن

التآمر فى نفوسهم ، فان السلطان أساس الدولة احتاط لنفسه وآله بالحراس الذين اجزل لهم ، فأحسنوا الاخلاص ، ولم يعد يشرب كأسا من الماء قبل ان يتذوقها رجال حاشيته ..

تمنى لو أن الزمان عاد الى أيام الخلفاء الراشدين . يمشى الحاكم فى الأسواق ، عليه القميص الخلق ، أو ثوب الكرباس الغليظ . فى رجليه نعلان من ليف ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درة ، يستوفى بها الحد ..

(فصل فيما اسداه السلطان خليل الى رعيته)

تعدد نزول السلطان من القلعة فى تجمل زائد ، واحتفالات عظيمة . يسبقه نفير البروجى ، ويمشى من أمامه ، ومن خلفه ، الأمراء والأعيان ، الى باب الفتوح ، أو باب النصر . ومنه الى باب زويلة . فاذا غادر الموكب باب زويلة ، أذن السلطان ، فركب الوزراء والأمراء وباقى الأعوان ..

قيل أنه كان يظهر فى مناطق مختلفة ، فى وقت واحد ، بمصر والقاهرة ، الف الناس رؤيته وهو يطوف المدينة ليلا او نهارا ، ممتطيا جواده . امامه وحوله وخلفه عشرات الأعوان والوزراء والنواب ، ينتقل من دكان لآخر ، يسأل عن الأسعار ، يناقش الباعة والمشترين ، يمر على الكتاتيب ، يتفقد المساجد ودور العلم ، يتأمل العناية بتسوية الطرق ونظافتها ، يصدر أحكامه بحق المخالفين ، فتنفذ حالا. حتى من يقضى باعدامه ، فان الحكم ينفذ فى المكان ذاته الذى جرت فيه الواقعة ، وكانت سببا فى اعدام صاحبها ، يرسم بما يقر الحقوق، وينصف الناس ، ويمنع الضرر المقصود والاساءة المتعمدة ، ويحمى الأسواق من الاستغلال ..

قتل خلائق من الزعر والأوباش والدعار والفساق والطرارين والمنخرطين فى مناسر الحرامية ، اعداد لا تدخل تحت حصر ، بالشنق والذبح والتوسيط وانواع ذلك ، فخلت السبل من الاشقياء . وسار النساء فى الطرقات ، لا يخشين الأذى من احد ..

نودى فى مصر والقاهرة ، بأن كل من له ارض فضاء ، او دار خربة ، فعليه أن يعمرها ، أو يؤجرها لمن يفعل ذلك . اذا تأخر فانها تعطى لغيره يعمرها . والزم أصحاب البيوت والحوانيت بتعليق

المصابيح على ابوابها ، والاحتفاظ بدلاءات مملوءة بالماء لاخماد اي حريق يشب ـ لا قدر الله ـ فيما يملكون ، أو بالقرب منهم ..

وشدد على نظافة الطرق ، فلا تلقى الكناسة فى جنباتها ، ولا قشر البطيخ والشمام أو الماء الوسخ . والزم سكان كل حارة أو درب أو عطفة ، بكنس أمام البيوت والدكاكين ، ورش الماء . وكان يعاقب لدلق الماء من النوافذ ، أو امام البيوت ، فلا تتسخ ثياب المارة ، أو يصابون بالزلق. وأشرف ـ احيانا ـ بنفسه ، على منع اعمال الحطب، واعدال القش ، وروايا الماء ، وشرائح السرجين ، والرماد ، واحمال الحلفاء ، والشوك ، فلا تمزق ثياب الناس فى الطرقات ..

وشدد على السائقين ان يغطوا زوايا الجمال والبغال ، فلا تصيب اردية الخلق ، وعلى ربط الدواب فى المواضع التى عينت لذلك ، فلا تربط على الطرق ، حتى لا تخلف اوساخا ، او تعطل حركة الطريق. ورسم بنقل المدابغ وأفران الجير والفخار والصناعات المزعجة الى خارج مصر والقاهرة . وهدم العديد من الدكاكين والقيساريات والمصاطب لتوسعة الأسواق . وعمر الصحراء ، شيد فيها المساجد والجوامع والزوايا والأضرحة ..

عرف ان الارض لا قيمة لها بغير الفلاح الذى يزرعها ، فعنى بتحسين احواله ومعيشته ، واجرى له المياه . وحتى لا يظلم الفلاح ، أو يبخس ـ الفلاح ـ الدولة حقها ، فان مندوبى السلطان يمسحون الأرض منذ تهيؤها للزراعة ، واثناء نمو المحصول الى وقت الحصاد ، فيتعرف الى انفاق الفلاح ، والى ايراده ، وما تحصل عليه من ارباح ..

ومنع المتسولة والمجاذيب والحواة وأهل اللهو والملعوب من الوقوف فى الشوارع والنواصى . جمع المتسولة بعاهاتهم فى تكية ابو سيف ، ثم نقلهم الى مكان منعزل فيما يلى حلوان ، واجرى عليهم من الأطعمة والرواتب ما يعينهم على الحياة ، ويحول دون المتاجرة بما ابتلاهم به الله . وأمر بان يجرى على المجذوبين ، كى لا يحتاجوا الى المشى فى الطرق وسؤال الناس ، فيكونوا سببا فى انتشار المرض . وأقام لكل اعمى قائدا ، يتقاضى نفقات من بيت المال . وضيق على ارباب المقاعد ، فلم يعودوا يفرشون بضاعاتهم الا فى الحارات والدروب والعطوف والأزقة . اما الشوارع والميادين فقد اقتصرت على الحوانيت . وعنى بأمر الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة ، والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ..

شدد على أصحاب الحوانيت والدواب ، الا يتركوا ما يملكون دون طعام ولا شراب . ألزمهم بتقديم الطعام والماء لها فى مواعيد محددة ، بحيث يتأكد اعوانه من ذلك . ورتب مكوسا على الدواب من الخيل والجمال والحمير ، كى لا يشتريها الناس بلا ضرورة ، ويعجز عن شرائها الفقير ، أو من ليس له بها حاجة ، فيخفف من زحام الطريق ..

ورسم بوجوب قطع يد السارق ــ مهما كانت السرقة صغيرة ــ كى يظهر العضو الذى جعله اداة لسلب اموال الناس ..

وحتى تكون أماكن الزنا معلومة ، لا يختلط المشبوه بالبرىء ، وليضاعف ــ فى الوقت نفسه ــ من المكوس والضرائب بما يثرى موارد الدولة ــ فقد ضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات ، وغير ذلك من الفواحش والمنكرات والملاهى . وضاعف رسم ضمان المغانى ، فلا يقيم احد عرسا حتى يدفع قدر عشرين الى ثلاثين مثقال ذهب ، بينما تدفع المغنية عن نفسها ، وعن كل جارية ، مغنية او راقصة فى حوزتها ، فلا تضرب بدف فى عرس أو ختان الا بدفع ما هو مقرر عليها . وتحصل لبيت المال أموال كثيرة ، انفقت فى تقوية الجيش ، ودعم موارده ، ووجوه أخرى مطلوبة ..

نصح أعوانه بتوضيح الخــــطأ . التشديد بعدم العودة اليه ، التحرك فى دائرة النصح والوعظ . فاذا أسرف المخطىء على نفسه ، وعلى الناس ، واجه الضرب والتشهير . وربما ألبس طرطورا علقت فيه أذناب السنانير والخرق البالية والودع ، ويطاف به فى المدينة ، والمنادى يسبقه ، ينبه بصوته ــ متوائما مع ايقاع الجرس ــ الى الخاطىء الذى رفض التوبة ، وواصل الغى والاستهتار ، فحق عليه العقاب ..

وحتى تستقر الأمور ، فلا يشتط سفيه او متورط ، فقد عاقب على الذنب اليسير ، كثيرا . اعتبر الرحمة ضعفا يهز مسيرة الحكم . وعاب على الولاة طراوة ولين ، وامتناع الفلاحين عن دفع ما عليهم من ضرائب ومكــوس . وأسرف فى ضرب المخــالفين والغشــاشين بالمقارع . لم يمنعه وفاة العديد من أثر الضرب . وسمر أصحاب دكاكين على دراريب دكاكينهم . ورسم بمنع قعود الفسقة وهى على الطرائق ، اذا مرت امراة تعرض لها احدهم بالفعل ، او بالقول . ووسط جماعة ساروا بالخلاعة فى سوق السمك . وطارد الزعار وأهل الفساد ، فخلت منهم الحارات ، وفروا من طريقه ..

كانت احكامه ـ فى ظاهرها ـ قاسية ، ولكنه كان احرص الناس على اجراء العدل . الأب يقسو على ابنائه ، وان اراد مصلحتهم وما فى خيرهم ..

لاحظ ظهور مجموعة من الأمراض الاجتماعية ، بدات تأخذ طريقها بين الناس . لم تكن موجودة ، ولا كانوا يعرفونها من قبل : ارتفاع الأسعار بلا سبب ، والغش فى الاطعمة والأشربة ، وتفشى الرشوة ، وعزوف الصغير عن احترام الكبير ، واغفاء الكبير عن رعاية الصغير ، وذواء القيم والتقاليد ، واضمحلال الروابط الأسرية ، وتدهور العلاقات عموما ، وشراء الذمم والضمائر . من يمنعه ضميره ، فان عليه ان ينشد أرضا أخرى ، عند قوم آخرين ..

راى ـ لذلك كله ـ ان يشدد قبضة القانون ، فلا يفلت منها خاطىء ..

طاف المنادى بارجاء المدينة ، يطالب الأهالى بأن يرشدوا الجنود الى الغرباء الذين قد يقيمون بينهم . كل من يرتدى زيا غريبا ، او تبدو سحنته غير مألوفة ، أو يمشى لصق الجدران . التنبه الى الأفعال والأقوال والتصرفات . الكلمة البرىء ظاهرها ، قد تخفى ما يهدد أمن البلاد والعباد ..

امر ، فانشىء جهاز للفحص عن احوال الناس ، واستقصاء اخبارهم ، والبحث عن مصادر الشائعات ، وتحرى الصواب والخطأ فيها . اذا صدرت الشائعة بحسن نية ، فان الطرد من الأرض ، اغلاق المتجر ، الفصل من الوظيفة ، عقاب يناسب الفعلة التى اساءت . فاذا كانت الشائعة لغرض معلوم ، فان العقاب قد يبلغ سمل العينين ، أو قطع اللسان ، أو ازهاق الروح . وربما أودع المخطىء السجن ، لا يغادره حتى ينتهى العمر ..

لم يعد يخفى عليه من أحوال البلاد شىء . الرقاع ترفع اليه من مصر والقاهرة والولايات . العيون والأرصاد تطالعه بحالة الأمن وسير الأمور . من يتردد على الحارات من الغرباء . لا يتحدث احد من السكان ، يبدى رايا ، أو ملاحظة ، يهمس اعجابا أو تأففا ، الا ويبيت عند السلطان خبر به . عنده علم بكل كبيرة وصغيرة ، لا تخفى شاردة ولا واردة ..

وحتى لا يحدث التشويش ، ويصير الأمر فوضى ، رسم السلطان بان يمتنع الناس عن التحدث فى المواضيع السياسية ، فى الأسواق ، أو فى مصاطب الحوانيت . من يخالف ، فانه يتعرض للمساءلة .

وامر الناس بلزوم اعمالهم ، وترك الاجتماع . ومنع القصاص من القعود على الطرقات والأسواق والبيوت والدكاكين . ومنع أهل العمامة من المكوث فى المساجد عقب الصلوات . وخطب السلطان فى جامع الأزهر ، وصلى بالناس . وانشغل ـ أحيانا ـ بتدبير ما هو مردود الى خطباء المساجد واهل العمامة ، من الصلاة والخطابة ، وارشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر فى كل ما اغدقه الله من أمور اوليائه . وأتاح للجميع فرص السؤال والمناقشة وابداء الرأى ، والاعتراض ، ان كان الاعتراض مطلوبا . لا يؤاخذ مواطن برأيه الا اذا قرن الفعل بالقول ، وحاول الاساءة الى الحكم . تشويه صورته أو تقويضه . من امتدح السلطان ، فقد أعلن ذلك بلا ضغط ولا نفاق او ما يشبهه . ما عدا سيرة عائشة ، فان الكلام مباح ، والتبليغات تفوته فلا تتناوله . لا خوف على احد ، ولا تمتد اليه يد بسوء ، الا فى حدود الله يقام بواجبه . وشدد على عدم اختلاط الرجال والنساء فى مكان واحد . حتى الجنازات يكتفى بصوات النساء لتشجيع الميت وهو يغادر بيته . أما مرافقة الجثمان فهى مقصورة على الرجال . وشدد على منع النساء من الجلوس امام البيوت ، أو النظر من النوافذ ، أو ارتياد الأسواق بغير ضرورة لذلك . وحظر على النساء اغتسالهن فى بركة الفيل ، على مراى من الرجال ، وخروجهن صحبة الرجال الى المقابر او الى البركة . ورسم بمنع النساء من زيارة المقابر ، وان من تخرج يجرى توسيطها هى والمكارى الذى ينقلها . وبنى القلاع والأسوار والابواب والمفاسل ومصليات الأموات وأحواض الدواب والخانقات والجوامع المساجد والزوايا والتكايا ومدارس الفقه والقصور والدور والحوانيت والأسواق والقيساريات والخانات والرباع والحمامات والأسبلة . ورعى الموالد وحلقات الذكر ، وانصت لمشورة العلماء ، وعمل برايهم ..

عمر الريف . أصلح الترع والجسور ، واجرى المياه ، ووفر البذور والأعلاف ، فصلحت الأحوال ، فاستغنى اهل الريف ، وشعروا بالطمانينة والرخاء . وزكا الخراج ، وكثرت الأموال ، ورخصت الأسعار ، واتسع المعاش ، وكثر ورود التجار فى ايامه ، وجاءت القوافل من بلاد قريبة وبعيدة . وتحقق للبلاد ـ خارج حدودها ـ سمعة عظيمة ، وتهافت الملوك والأمراء عليها ، فعقدوا معها الصلات والمحالفات الوثيقة . وظلت مصر ـ فى عهده ـ امبراطورية مترامية الأطراف ، وزعيمة بلاد الاسلام ، ومقر خلافة المسلمين ..

الباب الثانى عشر

تحاملت أم عائشة على نفسها . غادرت حجرتها الى باب البيت . قالت لأول من رأته :

ـ أخذ الجند عائشة !..

انتشر الخبر فى الشيخونية وما حولها ..

قيل ان السلطان لم يكن صادقا فى انزال عائشة . أسكت النفوس الغاضبة ، ثم صعد بعائشة ـ ثانية ـ الى القلعة . اجتمع العوام بالصراخ ، والنداء بالنفير . تأهبوا للبروز والقتال . انضم اليهم أوباش الناس ودعارهم والمشردون والفساق والغوغاء والأسافل واللصوص وأهل الطرق . صارت أعداد هائلة من الناس ، لا يحصيها الا خالقها . هجموا على سوق السلاح . اخذوا من الدكاكين كل ما بها من قسى ونشاب وزرديات ، أخذوا حتى السلاح الذى فرشه أمامهم أرباب المقاعد . دفعوا لهم ما كان عندهم من أموال ، ولم يدفعوا لهم فى بعض الأحيان . استخدموا الحجارة والمقاليع والآجر المقطع والبارية المقيرة والمخلاة والتراس من البوارى . واتخذوا الخوذ من الخوص ، والرماح من القصب ، والبوقات من القصب أيضا ، ومن قرون البقر . اتجهوا الى سجون مصر والقاهرة ، فأخرجوا من فيها . وقطع المسجونون فى خزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قيودهم ، وكسروا ابواب الحبس ، وخرجوا يعيثون فسادا ، ينهبون الدكاكين والحوانيت ، يسطون على البيوت ، يسلبون المارة ما يحملون . امتدت الغارات الى قصور الوزراء والأمراء والأعيان ، وحواصلهم ، فنهبوها، وخربوها . وهجم جماعة على الاسطبل السلطانى ، فسلبوا ما فيه من الخيل والشعير والأوانى ، وحصل من الوان التدمير ما لا يمكن وصفه ..

تدفقت على القاهرة اعداد لا حصر لها من ابناء البلاد المصرية ، حملوا الفؤوس والشوم . قرروا حصار القلعة ، حتى تنزل منها عائشة . أحاطوا الشوارع والمنافذ الموصلة الى قلعة الجبل بالمتاريس. وكان الشيخ محمد الأقصرى شيخ مشايخ الطريقة الرفاعية ، يدور



على المتاريس والتحصينات ، يحرض الناس على الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آيات الجهاد والربط ..

(فصـــل)

لم يعد السلطان أساس الدولة يأمن العوام . اظهروا التمرد الذى غلفوه باردية التوسلات والرجوات والمناشدة . أمر بمنع اقترابهم من أسوار القلعة ، وقصر عمل الشرطة على المماليك البرجية، فلا يمارسه غيرهم ..

انشغل الجند فى تحصين القلعة ، فسد باب القرافة بالحجارة ، وقسم أجناد الحلقة والأجناد البطالة طوائف ، كل طائفة على تربة من التراب ، بين قلعة الجبل وقبة النصر . فلما وصل الفوغاء الى الرميلة ، رماهم الجند ــ من أسوار القلعة ــ بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع . افلحت اعداد فى تسلق الأسوار. لكن الجند ــ من أعلى ــ ردوهم قتلى ..

فسدت أحوال المملكة . وصار الأمن لمن غلب ، وتعطلت الأسواق، وجاس اللصوص والحرافيش ، يخربون وينتهبون ما قدروا عليه ، وخامر اغلب المتولين والنواب ، وخرجوا عن الطاعة ..

أعطى السلطان لأهل مصر والقاهرة امانا على أنفسهم ، شريطة أن يلقوا السلاح ، ويوقفوا التمرد واعمال السلب والنهب . نصحهم بايثار السلامة ، والحفاظ على مصالحهم ، والانصراف الى أمور دنياهم ، والاهتمام بزراعتهم وقطعانهم وتجارتهم ..

أمر بالقبض على من يوجد عنده شىء من المنهوبات ، وايداعه الحبس ..

(فصل فى اختطاف عائشة من قلعة الجبل)

صحا الناس ــ فى مصر والقاهرة ــ على أصوات المنادين ، فى الشوارع والأسواق . من احضر عائشة ، أو دل صاحب الشرطة عليها ، أو على مكانها ، نال جائزة عشرين ألف درهم ، واقطع غلته خمسة آلاف دينار فى كل سنة ، ومن وجدت عنده ــ بعد النداء ــ يجلد بالسوط ثلاثمائة جلدة ، ويؤخذ ماله ، وتهدم داره ، ويحبس طول عمره ..

فاعلم أن عائشة دليت بالحبل من سور القلعة ، بليل . من سهل عملية هروبها ؟ .. من تلقفها ، وهبط بها الى المدينة ؟.. لم يتأكد الأمر بصورة صحيحة ، ولكنها تسللت ـ مع خاطفيها ـ من برج باب المدرج ، لصق الجدار ، الى باب الدرفيل . ومنه الى سكة القرافة . ساروا فى الطريق المترب الخالى ، إلى الفضاء الذى كان ـ ذات يوم ـ مدينة العسكر ، فلا يدرى أحد بعدها : أين ذهبوا ..

أوكل السلطان الى صاحب الشرطة ضبط الأمور فى مصر والقاهرة . أدهشه هؤلاء الذين رفضوا لعائشة حياة العز والهناءة . فضلوا ـ لهوى فى نفوسهم ـ أن تظل فى الشيخوخة ، لا سند ولا ولى أمر ، سوى أمها العجوز . غاب خالد عمار ، فلا أحد ـ منذ غيابه قبل أعوام ـ فطن الى مكانه . تعددت الروايات عن رؤيته فى مناطق بمصر والقاهرة ، وربما فى الولايات ، ولكنه لم يعد الى الشيخونية حتى الآن . أما أبوها فقد لقى جزاء خيانته للأمانة ، واستباحة أموال السلطان . حتى خطيب المسجد ، ثبت أنه تلاعب بدين الاسلام ، وحاول الفساد والافساد . وتدخل الخليفة القاهر شمس الدين فيما ليس من شأنه ، فقضت ارادة السلطان بخلعه ، مثلا لمن يرتدى ثوبا ليس على مقاسه . يتصور نفسه فى غير حقيقتها ، يفهم الأمور على نحو خاطىء ..

جرت التحقيقات داخل قلعة الجبل ، تتقصى عن المدبرين والفاعلين . استعصى ـ بعد طول تدقيق ـ كشفهم . بدت القاهرة ـ أسفل القلعة ـ قاسية شوهاء .. هل مد حبال الأمان ، فاختلط الصواب والخطأ ، ما ينبغى وما لا ينبغى فعله ؟..

حاصر الأجناد بيت عبد الرحمن القفاص من كل جانب ، ثم اقتحموه . عبروا الطرقة الضيقة ، ومنها الى الحوش الواسع ، على جانبيه أبواب الشقق . شقة القفاص من غرفتين : الأولى يسكنها عبد الرحمن القفاص ، وزوجه التى أقعدها المرض . والثانية أقامت فيها عائشة ـ بمفردها ـ حتى تزوجت خالد عمار ، فأقاما فى حدرة الحنة ..

كانت الأم تجلس ـ وحدها ـ فى الغرفة المطلة على الشارع الخلفى . أقعدها المرض تماما ، فاكتفت بالصياح . فتشوا الغرفتين ، ومالوا الى الشقق الاخرى ، وصعدوا السطح . لم يجدوا ما يدلهم على عائشة . حتى الثياب اختفت من الصندوق الخشبى فى ركن الحجرة ..

غاص الجند فى مصر والقاهرة ، كي يصلوا الى موضع عائشة . من شارع الى شارع ، من درب الى آخر . لا يتركون شبرا بغير اشتباه وفحص ، يدققون فى الغادين والرائحين ، يرقبون الداخلين الى البيوت والخارجين منها ، يتطلعون الى النوافذ والمشربيات والأسطح ، يعطون انتباههم لكل حركة أو نأمة ..

بدت الحارات مهجورة . لم يعد احد يغادر بيته الا باذن من صاحب الشرطة . يدخل الأجناد كل الدكاكين والحوانيت والبيوت ، لا يدعون موضعا الا فتشوه . اذا لاحظوا ارتباكا ، أسرفوا فى التعذيب ، حتى يوقفهم على شيء من أمر عائشة ، أو اين مضت عقب فرارها من القلعة ..

(فصل فى اقتصار الوظائف الكبرى على المماليك الجراكسة)

قيل ان السلطان خليل أكثر من شراء المماليك ، حتى ضاقت بهم طباق القلعة ودورها . فلما نزلوا الى مصر والقاهرة ، قويت شوكتهم ، وتحققت لهم الحمايات الكبيرة ، وصاروا يشوشون على الناس ، ويدخلون البيوت بلا استئذان ، ويستولون على ما تصل اليه أيديهم ..

فاعلم أن السلطان أساس الدولة أكثر من جنس الجركس ـ وهذا طبيعى ـ حتى صار منهم غالبية الأمراء والجند ، وبذل للنخاسين أموالا كثيرة ، لجلب من يستطيعون من بلاد الجراكسة الى مصر . أنزل المماليك الآخرين من قيادة الجيش ، وأسقط اسماءهم من الدواوين . واعتز بهؤلاء الذين ينتمون اليه بصلة العرق والدم ، وصار يرقيهم ، وينعم عليهم . وزاد ، فأفرج عن أعداد من الجراكسة، سجنوا من قبل نواب السلطنة السابقين ، وعينهم نوابا فى البلاد ومقدمى الوقف ، وخصهم بالترقية الى وظائف السلاحدرية والجمعدارية والجاشنكيرية والأوشاقية . وتقلص المماليك الخورازمية والتركمان والتتار والأتراك ، فلم يبق منهم ـ فى أواخر عهده ـ الا قليل من بقاياهم . خشى اذا تعددت انتماءات المماليك ، أو البلاد التى جلبوا منها ، أن يتحزب كل واحد لقومه ، ويتستر على أفعال طائفته ، ويغض الطرف عما يدبرون ويتآمرون ..

قيل عن هؤلاء الجراكسة انه ليس لهم تمسك بدين ، ولا رجاحة

فى عقل ، ولا تدبر للأمور . جعلوا ارزاقهم فى سيوفهم ، ومعاشهم فى القتل والتدمير ، ولا شأن لهم بحياة الناس ، ولا بما يجرى خارج الحدود ، الا اذا كانوا فى حملة فتح ، او لدرء اعتداء . لا وطن ولا قضية . حتى اسلامهم مشكوك فيه ..

ربما كان ذلك صحيحا فى البداية . كانوا بعيدين عن مألوف الحياة المصرية ، لا يعرفون العادات ولا القيم ولا التقاليد ، وغابت عنهم — احيانا — لغة المصريين .. لكن السلطان أحسن تربيتهم بدار الاسلام، ويسر لهم حفظ القرآن ، وحفظ احكام الملة المحمدية ، وبذل ما وسعه لاسترضائهم بالمزيد من المال والاقطاعات ، وفرض المكوس والضرائب، وافاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء بما لا يعد ولا يحصى ..

أقاموا فى أبراج القلعة وطباقها ، يدرأون عنها أى اعتداء . وخلع السلطان على مقدمى المئين والألوف ، الأطواق الذهبة والاسورة والسيوف المحلاة . وخصص لهم من الخلع والعطايا والكسوات والعاليم من الذهب والفضة والجواهر واللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه . وكان يخرج الى الرحبة ، عند استحقاق حضور الطعام للمماليك . يأمر بعرضه عليهم ، يختبر لونه وجودته . متى رأى فيه عيبا ، أمر بعقاب المشرف والطهاة ، وربما انهال عليهم اذى بالدرة التى لم تكن تفارقه ..

معظم المماليك بداوا حياتهم فى خان مسرور ، أو دار البركة ، أو وكالة كشك ، أو خان جعفر ، أو بالقرب من جامع السلطان قايتباى . وفدوا من بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغول والأروام والاكراد والفرس وغيرها من أدهاس آسيا الوسطى ، وحول بحر قزوين وبلاد القوقاز ووادى نهر الفولجا والدون وضفاف بحر البلطيق واواسط أوروبا . لم يبع الشراكسة — تحديدا — اولادهم الا بعد أن اطمأنوا الى نهاية الطريق التى يسيرون فيها ، ان لم تكن حكم مصر ، فالمشاركة فى حكمها بمنصب خطير ، دونه الحياة فى الوطن مهما تلفعت بالهناءة ..

لكن الرياح تأتى — احيانا — بما لا تشتهى السفن . وقد تأتى النهاية بعكس ما نعد له او نتصوره . ولاء المملوك للسيد ، لا للأسرة أو الوطن . هو الذى اشتراه ، وبوسعه أن يبيعه ، أو يعتقه . والمملوك يخلف سيده . يصبح الى اسرته ، يأخذ أمواله ، يضم زوجات السيد الراحل الى حريمه . واذا مات المملوك تؤول امواله

وبيوته وجواريه ومماليكه وأطفالهم الى سيده ، أو الى بيت المال ان كانت للحكومة سلطة . الف تخلى المماليك عن أسيادهم حين يبدل الزمن ملامحه ، ويقفون موقف الضعف ، اذا شحت الأموال ، وقصر فى الانفاق ، تغيرت النفوس ، وخامرت فى الثورة ، وقد تحاك الدسائس والمؤامرات . أيامهم عابرة ، وغدهم غير مأمول ، يحيون اللحظة مقطوعة الصلة بما مضى ، وما يأتى . لا شعور بالأمن والأمان. يسلبون وينهبون ، يأخذون كل ما تصادفه أيديهم . تصرع الجسد ـ قبل أن يرتشف كوب ماء ـ ضربة رمح ، او توسيط سيف ، أو رمية بالقسي أو النشاب ..

المملوك وافد الى مصر . لم يولد بها ، لا اسرة له فيها . ولكنه ـ برعاية أساس الدولة خليل ، بتعليمه وتهذيبه وحسن سياسته ـ أصبح مصريا ، لا يرى لنفسه وطنا سواها . أبناء البلاد اعتبروه كذلك ..

لم يتبع السلطان خليل ما سار عليه أسلافه ، حرصهم على تنقل المملوك فى أطوار الخدم حتى يصل الى المكانة الرفيعة . أفاض على مماليكه بالعطاء الكثير والخلع والرتب الكبيرة ، لا يشغله ان كانوا حديثى القدوم ، أم أن اقامتهم طالت فى البلاد ..

(فصل)

فاعلم أن اعمال النهب من الزواقيل والعراة والأوباش ، قد اثرت فى المكوس والضرائب ، فلم تعد تجبى . أنفق السلطان آلاف الدينارات لاخماد الفتنة ، فبطل الانفاق على الأجناد . تقضت الأشهر دون أن تنفق لهم رواتبهم ، فكثر الضجيج ، وشغبوا فى أرزاقهم على مقدميهم ، وركب كل منهم هواه . تطاولوا على الناس بالشر ، وتجاوزوا الحد فى النهب والسلب ، وركضوا بالجياد فى الشوارع والدروب ، لا يشغلهم من يصاب أو يقتل . وثار سكان سوق الصليبة لمقتل صبى . ركب جندى جواده ، تراكض بلا عناية ، فداس الصبى، وثار الأهالى ، وسودوا الرقاع ، تعيب تكرار الحادثة لصبية آخرين، وأناس آخرين ، تطلب العقاب الباتر ، تحذر من غليان الثورة فى النفوس ..

قيلت مزاعم عن فحش أمر الأجناد ، لا يمرون بشىء الا انتهبوه ، يتعرضون للمارة فى الشوارع والعطوف ، يسلبونهم اشياءهم . من امتنع ضربوه ، أو قتلوه ، يأخذون الغلمان والنساء ـ علانية ـ من الطريق ، واستولوا على المحاصيل والغلال والدواب والمواشى ، وهبطوا

كالجراد على البيوت ، ينزعون ابوابها وسقوفها ونوافذها ، يحملونها على الخيل والجمال لبيعها فى الأسواق ، بالأثمان التى يحددونها . وطلبوا من المارة اموالا ، يجبونها على كره منهم . من امتنع عن الدفع آذوه ، والحقوا به ضررا بليغا . واخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يقوى احد على منعهم ، وسطوا على البيوت ، فافتضوا الأبكار ، ولاطوا بالغلمان ، وزادوا فنزلوا فى الدور ، واخرجوا الناس منها ، ففضح اصحابها ، واستغاثوا بالسلطان ، فنصحهم بالسكنى فى مناطق أخرى ، بعيدة ..

قام الشيخ طاهر درويش خطيب مسجد سنجر الجاولى ، فعلق مصحفا فى عنقه ، ودعا الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنع التقتيل والسلب ، وكف عادية الجنود . اجابه مقدم الأجناد بالقبض عليه ، والباسه طوقا فى رقبته ، وطاف به فى الأسواق . ثم ألزمه البقاء فى بيته . وقيل أن الجنود منعوا عنه الطعام والشراب أربعة أيام . وحين طلب حسوة من الماء ، منعوه ، حتى هلك .

واجتمع قضاة المسلمين وعلماء الأزهر والشهود والأعيان وأولاد الناس . دخلوا تكية تقى الدين البسطامى . جعلها مقدمو الألوف موضعا لاقامتهم . شكوا الحال اليهم ، فاهينوا وطردوا ، وهددوا بالشنق والتوسيط ..

رفع أولاد الناس الخبر الى السلطان . أكثروا من شكايتهم ، والسلطان يغض الطرف ، لما رأى فى ذلك من مراعاة المصلحة ، والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة المماليك . فلما استفحل أمر الأجناد المتمردين ، وقويت شوكتهم ، وكثر عبثهم ، وتجاوزوا حد الشريعة والملك ، أمر السلطان مقدمى الجند بأن يلزموا جنودهم بأبطال النهب ، وهتك الحرم والستر ، ويصعدوا بهم الى طباق القلعة . معهم مكاحلهم وبنادقهم ، يودعونها الزردخانة ، لا ينزلون الى الرميلة اطلاقا ..

لكن نداء السلطان لم يحقق غرضه . اصم مقدمو الألوف آذانهم عن سماع ما رسم به السلطان ، وخرج الجند عن طاعة امرائهم ، وخرج الأمر عن الجميع ، وساد الهرج والفوضى ، واستمر السلب والنهب ، وشمل ما بين باب النصر وباب الفتوح ، حتى مشارف قلعة الجبل ..

خلت الطرقات من السابلة ، وامتنع الناس عن التردد على المساجد ، فلا يكتمل الصف الواحد فى صلاة الجمعة الا بالكاد . ومن يغادر بيته ، فانه يودع أهله ، ربما لا يعود ..

الباب الثالث عشر

دخل الأجناد الى الاسطبلات تحت القلعة . الف وخمسمائة او يزيدون ، استولوا على ما بها من الخيل . ثم اتجهوا الى ميدان الرميلة .

قيل أنه لما لاحظ قواد الجيش تغير نفس السلطان عليهم ، لاشتطاطهم فى طلب النفقات ، والعصيان ، طلبوا الاذن بالدخول عليه . فلما أذن لهم - بعد مناشدات - رمو بانفسهم بين يديه ، وجعلوا مناطقهم فى اعناقهم ، تذللا وخضوعا ، وسألوه الصفح عنهم .. فقال السلطان فى غضب واضح :

- ماذا تريدون من كل ذلك ؟..

استطرد وهو يغمض عينيه تأثرا :

- لقد أدررت لكم الأرزاق ، وسودتكم ، وجعلتكم فى ارفع المناصب ، فما ازددتم الا تهورا وابعادا ..

قال النائب الكافل :

- انهم ما التمسوا الاذن بالدخول الا للظفر بالعفو عنهم ..

قال مقدم جنود :

- يا مولانا .. نحن نبذل دماءنا دونك . انما نشكو اليك سوء الحال وتأخر الرواتب !..

قال السلطان :

- لقد غرتكم الأماني ، وقتلكم حب الدنيا وجمع المال !..

قال مقدم الألوف :

- نحن خدم مولانا السلطان وأولياؤه . كلنا حاطب فى حبله ، وساع فيما أرضاه ، وايد ملكه ..

قال السلطان :

- كلام جميل .. يلفيه شغبكم وتهوركم !..

قال مقدم الجنود :

- اما ولاؤنا .. فثق يا مولانا انه فوق كل شك ..

استطرد بتذلل :

- انما نلتمس الانفاق من رواتبنا لتستقيم دنيانا ..

قال مقدم الجنود :
ـ لن يرضى المنتصر بارادة الله ان جنده لا يجدون قوت أيامهم !..
وشى صوت السلطان بلين مفاجىء :
ـ يعز على ما ذكرتم عن حاجتكم .. ولكن الفتنة التى اثارها العامة جعلت من المتعذر تحصيل المكوس والضرائب ..
غلبت الحماسة مقدم الألوف :
ـ انما نحن جند السلطان .. ومن واجبنا ان نلبى أمره بقمع الفتن !..

(فصل فى اباحة مصر والقاهرة)

قيل ان السلطان فطن الى سوء العلاقة بين الأجناد والعوام ، فأحب الافادة منها . لم يكن عنده ما يرضى به الأجناد ، واشرف أمره على الانحلال ، فلجأ الى الحيلة ، كي يغلق باب الخطر ..
رسم باباحة مصر والقاهرة ثلاثة أيام للنهب والسلب ، وعقاب كل من خرج عن الطاعة من أولاد الناس والعوام ..
قال لمقدمي الألوف :
ـ جرانا السفلة ، فطلبوا السرف والشغب ..
واعلن تخوفه :
ـ أخشى ان تركناهم ، سادوا فى آخر الامر ، وخربوا كل ما صنعناه ، لهذا البلد ..
وقال فى حسم :
ـ من خالفنا فهو كافر ، مشرك .. فاقتلوه !..
ورسم بتتبع المفسدين ، فلا يبقى منهم احد حتى ينال عقابه ، جزاء ما خطط ودبر ، وما سولت له نفسه ..
اطلق مقدمو الألوف لجنودهم حرية التقتيل وارتكاب الجرائم . اعلنوا انهم سوف يمنعون ـ من الآن فصاعدا ـ كل محاولات مناواة السلطان ، والتشويش ، والاضطراب ، وان الجند سيردعون كل من يسىء الى الأمن ، ويلقون القبض على من يخل بالنظام ، فيضرب ويحبس وينفى ، ويقطع خبره ، وربما قتل او قطعت يداه ، باعتباره من المفسدين فى الارض . قبضوا على من وجدوهم فى الطرقات ـ ليلا ـ وفى المساجد والجوامع ، وتتبعوهم فى الأسحار ..

(فصل فيما جرى من الجند
عقب رسم اباحة مصر والقاهرة)

غلب التوقع ، فاغلق الكثير من الحارات ، وتحصن أهلها داخلها. اغلقوا الدكاكين والحوانيت وابواب الدور ، وعطلوا الأسواق ، وخندقوا الخنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع ، وأكثروا من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك . افادوا من كومات الزبالة على نواصي الدروب والأزقة . جعلوها كمتاريس يقفون خلفها ، ولازموا السهر بالليل ، يسرحون فئات وطوائف ، ومعهم المشاعل . واتخذت اعداد منهم الأسلحة والنبابيت . لم يعد فى البيوت سوى النساء والأطفال ، ومن تشقيهم الحركة ..

تدفق الجنود من خارج المدينة . ردموا الخنادق ، وأزالوا المتاريس ، واختلطوا بالناس ، وباغتوا الدكاكين والبيوت . اعملوا السلب والنهب ، واستحالت شوارع القاهرة ميدانا للمعارك والفوضى ، فصارت دار حرب ..

وضع الجند أسيافهم فى الناس . أطلقوا النار فى الشوارع ، فهلك من العوام خلق كثير ، وامتلأت المساكن والدروب من الموتى ، وقبضوا على كل من راوه فى الرميلة ، وفى الطريق ، وكل من قبضوا عليه وضعوه فى الأصفاد ، وارسلوه الى السجن . يظل داخله حتى يقضى فى أمره . وامتلأت بالمعتقلين سجون الاسكندرية ودمياط وقوص ..

واستأذن صاحب الشرطة سلطان البلاد ، فقطعوا أيدى واقدام من القى القبض عليهم من مدبرى الفتنة ، وصلبوا جماعة منهم على بوابة درب اللبان . وامتنع ابناء الخيامية عن السعى ناحية باب زويلة. شوهدت — لأيام متوالية — عشرات الجثث معلقة على الباب . يدركها التعفن ،فينزلها الجنود ، ليضعوا أخرى بدلا منها ..

وقيل أن الأجناد حشوا مخارج بعض المسجونين بالقطن . لم يفلتوا ثقبا ، فتعاظم جسم السجين ، وواصل الانتفاخ ، حتى انفجر. وبسط الأجناد الشيخ رجب ابو العزايم — من علماء الأزهر — وشدوا رجليه ويديه الى اربعة أوتاد فى الارض ، وتركوه على هذه الحال ، حتى هلك ..

اخرج أهل اليسار اموالا كثيرة ، فقووا من خف لدرء اعتداءات الجند . وتداعى الناس للقيام ومقاومة المعتدين ، فوقع الهرج فى

مصر والقاهرة ، وانطلقت أيدى الزعر والحرافيش على أهل العافية والصون ، وقطعوا الطرق ، وامتلأت أيديهم مما فى الدور والقصور والحوانيت ..

والقى الأجناد القبض على عشرين من مناسر اللصوص ، اتهموا بتدبير سلب ونهب فى قصور الوزراء والأمراء ببركة الفيل وما حولها . أمر صاحب الشرطة بتسميرهم وتوسيطهم ، كل واحد او اثنين على باب من أبواب القاهرة ، عبرة لمن تسول له نفسه بمثل ما دبروا أو فعلوا ..

ومضت أعداد من العوام الى سوق السلاح . استخدموا ما حملوه فى التصدى للجند . ودارت معارك عنيفة ، مات فيها المئات ، وجرح الآلاف ، ونزل بالناس بلاء لا يوصف ..

(فصل)

لزم الناس بيوتهم ، وعجزوا عن تدبير ما يحتاجونه من الاطعمة والمياه . وظل تجار بين القصرين فى دكاكينهم ، لا يبرحونها . اغلقوها على أنفسهم وعمالهم من الداخل ..

أسرف الأجناد فى السلب والنهب ، والتصدى للمارين ، سواء كانوا فرادى أو نظموا مظاهرة . وساد العبث والمصادرة ، واستباحة الحرم بما لم يعهد الناس مثله . تسلط الأجناد ، وقاموا بالكثير من التعديات ، وأباح لهم رؤساؤهم ما يرفضه الشرع ، وتطبق فيه الحدود ..

لم يعد للناس ناصر ولا منجد . وكان الناس اذا سمعوا أن عساكر قد اقبلت تركوا اموالهم ومتاعهم وحواصلهم، ولاذوا بالجبل، فرارا بحياتهم . وفرت أعداد الى اسطح الدور ، فلحقهم الجنود ، واعملوا فيهم السيوف والخناجر ، او قذفوا بهم — أحياء — من حالق . وكبس الأجناد على جماعة اختفوا فى تكية ، بالقرب من المشهد النفيسى . تذللوا لهم ، وتضرعوا ، وخاطبوا مروءتهم ، فما التفتوا الى شىء من ذلك ، انما أعملوا فيهم السيوف ، حتى هلكوا جميعا . وقيل أن الدماء أحدثت بركة هائلة امام تكية العجمى اسفل القلعة ..

لم يلتفت السلطان الى مناشدات الأمان التى علت فى داخل

وخارج البلاد . أصم اذنيه عن كل الشفاعات التي ترجى بها الاعيان وسفراء الدول الغاء العقوبات الصارمة ، أو تخفيها . لم يغادر طبعه فى ألا يرد حكما اصدره ، أو تصرفات وافق عليها . علقت الجثث فى المشانق على طول الطريق ما بين باب زويلة حتى ميدان الرميلة ..

(فصل)

حددت مواضع الاستباحة بالقاهرة من باب الفتوح الى باب النصر ، الى الأماكن القريبة من قلعة الجبل .. لكن الجند أسرفوا فيما أذن لهم به . نزلوا على العديد من القرى ، فاحتووا على الذخائر والأموال والأطعمة والمواشى والدواب ، وعاثوا فيما وصلت اليه خيلهم من القرى والبساتين والكروم والمزارع ، واهلكوا الكثير من انحرث والأولاد ، وقطعوا الايدى والأرجل والآذان ، وسملوا الاعين ، وجعلوا على الناس النكال والهوان ..

استنكر السلطان ذلك . طالب القادة بأن يحرضوا الجنود على عدم الاتيان بما لم يؤمروا به ، ويغادروا الأماكن التى لم يصدر بشأنها رسم الاباحة ، ونهاهم عن السلب والنهب والمصادرة ، فيما عدا السلاح والكراع ..

ضاق الأمر على الناس . عدمت عندهم الأقوات ، وصارت أيامهم خطرا متصلا . فلما اشتد الأمر ، دفعوا بنسائهم واطفالهم مستأمنين. يسألون الجند أن يوقفوا ما بداوه ، فلم يجبهم الجند الى مطلبهم ، واعملوا سيوفهم فى النساء والأطفال ..

كشف الناس رؤوسهم ، واستغاثوا بمقام السلطان ، وباتوا لياليهم فى قراءة ختمات وأذكار ، وأسرفوا فى الدعاء ، والقنوت فى الصلوات ، وتضرعوا ، وابتهلوا الى الله بالأدعية ، وحملوا المصاحف على رؤوسهم ، وفزعوا الى الجامع العتيق ، وجامع الأزهر ، وجبل يشكر ، واستجاروا بمقام الحسين ، واحاطوا به ، وابتهلوا الى الله تعالى ، وابتهل خطيب جامع الازهر ، وردد المصلون : « اللهم انا نشكو اليك فقد نبينا ، وغيبة ولينا ، وكثرة عدونا ، وقلة عددنا ، وشدة الفتن بنا ، وتظاهر الزمان علينا ، فصل على محمد وآله ، واعنا على ذلك بفتح منك تعجله ، وبضر تكشفه ، ونصر تعزه ، وسلطان حق تظهره » ..

قيل ان الشيخ جليجل الغرياني ، من سكان حدرة البقر ، وقف اسفل القلعه ، وصاح بآخر ما عنده :

ـ يا ابن اللئيمة .. أطلقت الجراد علينا ، فأيتمت أطفالنا ، وارملت نساءنا .. والموت غاية قريبة !..

امسك به الجنود ـ حالا ـ فسملوا عينيه ، وقطعوا لسانه ، وضربوه بالمفارع ، حتى هلك ..

• الباب الرابع عشر

ـ من ؟!..

شمل السؤال وجه السلطان وكيانه ، لما دخل الحاجب ، فأعلم السلطان بقدوم عائشة ، بنت عبد الرحمن القفاص ..

تأمل حسنها الذى لم يغيبه الفزع :

ـ ها هم قد اتوا بك ..

قالت من بين لهاث انفاسها :

ـ لم يأت بى أحد !..

هى هى عائشة . لا تفتعل الجسارة . الخجل يغلبها ، ولكنها تواجهه ، تخاطبه ، تأخذ وتعطى ، تسأل وتجيب . ليس فى بالها من صفة الجالس امامها شىء ، كأنه واحد من ذويها ، أو كأنه من آحاد الناس . وكان ذلك أخص ما يقربها اليه ..

ـ ألم تقبض عليك الشرطة ؟..

ـ انما أتيت من نفسى ..

كان فى نفس السلطان من الشدة ، ما يجعل ضرب الأعناق عنده ـ فى الحق ـ كقتل عصفور . وكان فى نفسه من الطيبة والرقة والرأفة ما يفزعه لموت عصفور . وكان اذا غضب لا يكاد احد يقدر ان يكلمه ، ولكنه فوت قسوة كلمات عائشة ، وقال فى ود :

ـ أما تخشين عقابنا ؟..

قالت بما لم يعهدها فيه من قبل :

ـ انا اقتل مئات المرات كل يوم بقتل الناس فى الشوارع ..

تبدت فى وجهه نذر غضب :

ـ فما الذى اقدمك ؟..

قالت عائشة :

ـ اطلب الأمان على بيوت الناس وحرمهم ..

وهو يعجب للتغير الذى بدل حالها :

ـ ما كان قصدى شىء من ذلك .. انما عنادك هو الذى أوجب ما حدث !.

علا صوتها :



ــ قتل الناس بغير شرع الله ؟!..
اسفر الغضب عن تقطيبة :
ــ وماذا بعد يا عائشة ؟..
وغلبت الحيرة صوته :
ــ لم التق فى حياتى بمن اجترأ على سواك !..
واجهت عينه :
ــ لا احب ان اقيم فى هذا المكان ..
قاوم التململ :
ــ مات الآلاف وانت على رأيك ..
ــ ما شأن الناس بقبولى أو رفضى الاقامة فى القلعة ؟!..
ــ لولا انهم تدخلوا ، لكنت عندنا ضيفة غالية ..
ــ لا أحب الابتعاد عن حدرة الحنة ..
صرخ :
ــ لماذا ؟..
ودانت طبيعته لغضب واضح :
ــ استضفناك فى قصورنا .. ولم نضعك فى مجب الجبل ..
علا حاجباها لتأكيد السؤال :
ــ القصور ملأى بالحريم .. فلماذا انا ؟..
أهمل السيف ، فسقط تحت قدميه ، وهز قبضة يده فى وجهها :
ــ يا عائشة .. اليد التى غيبت خالد عمار ، وبطشت بأبيك وخالك وكل من وقف فى طريق ارادتى ، لن يصعب عليها أن تكسر عودا هشا مثلك !..
هل يكذب عليها ، أم أن بعرور القرنفلى التاجر بالحمزاوى ، شغل بطمأنتها ؟.. قال انه اصطدم فى سيره أمام خان الخليلى بشخص ، عرف من ظهره وطريقة مشيته انه هو خالد عمار . توقف وحدق ، حتى مال الشخص ناحية المشهد الحسينى ، فتأكد من تخمينه . لما حاول اللحاق به ، كان قد اختفى ..
بحلقت عيناها :
ــ أنت تعلم بمكان خالد اذن ؟..
قال فى غضبه :
ــ لو لم يرفض قدومك الينا ما غيبناه ..
اضاف وهو يضغط على الكلمات :

ـ انت التى قتلت أباك وخالك وكل فى وقف فى طريق ارادتى ..
هتفت :
ـ أنا ؟! ..
ـ قلت انهم رفضوا اقامتك فى قلعة الجبل ..
ـ لم يرفضوا .. ولم أحدثهم فى الأمر من اصله ..
ـ فلماذا قلت ما قلت ؟..
وشى صوتها بتخاذل :
ـ تحايلت على رفض طلبك ..
هتف للمفاجاة :
ـ حيلتك قتلت ناسك !..
قالت بدهشة :
ـ الم يفعل ابى ما ادعيته عليه ..
تنهد كانه يزفر :
ـ تهمة ابيك انك ابنته !..
ـ وخالى .. والآخرون ؟..
ـ قلت انهم رفضوا اقامتك بيننا ..

قيل ان الحضور تابعوا كلمات السلطان بأعين وآذان غير مصدقة . بدا ما قاله فى غاية الغرابة ، لما عرف عنه من تدبر الأمر ، وسعة الصدر ، واحترام الشرع ..

اشفق للتخاذل الذى لم ير صورتها فيه من قبل ..
ـ كنت أظن نفسى سلطانا حتى رايتك ..
قالت من بين اسنانها :
ـ وماذا انت الآن ؟..
اغمض عينيه فى تأثر :
ـ لا ادرى !.. اذهلتنى عن نفسى !..

تقضت اللحظات . كرت الحكاية فى ذهن السلطان منذ بداياتها . وتذكرت عائشة الراحلين ، فزاد ألمها ..

فاجأ السلطان عائشة والجالسين والقيام :
ـ يا عائشة .. اريد ان اتزوجك ..

لم يكن السلطان يريد بعائشة اطرا ولا شرا . لو انه شاء اذيتها ، فان اشارة من يده كانت تمحوها من الوجود . ملكت مشاعره ، فأحبها . أخفى ما بنفسه حتى عن الخاصة وأقرب الأعوان . صبر حتى لقيها ، وصبر على فرارها من وجهه ، لواذها باهلها وبمن لا

تعرف . شغله هناؤها والبعد بها عن حياة المسغبة .. لكن الذين لا يريدون لها الخير ، أوغروا صدرها ، وغيروا نفسها ..

أضاف لتشاغلها بالنظر الى الارض :

ــ صمتك .. موافقة او رفض ؟!..

وهي تواجه عينه :

ــ ازمعت ان أظل بلا زواج ..

انتطر فى مجلسه :

ــ ترفضين السلطان ؟..

ــ أحب ان اظل فى حدرة الحنة ..

ــ هل هناك من اريدها .. ولا تريدنى ؟..

قالت بالبساطة التى طالما أذهلته :

ــ انا !..

صرخ :

ــ عاهرة !..

تداخلت قبضة يدها فى راحة اليد الاخرى ..

قال وهو يهم بأعلى جسده :

ــ من تظنين نفسك ؟.. ما انت الا امراة من نساء العالمين ..

جاوز انفعاله حلمه وغضبه ، فبدا شر خالصا . تقلصت ملامحه ، فلم يعد هو . غابت ــ فى خوف الحاضرين ــ توقعات اللحظة التالية ، وماذا يقدم السلطان على فعله ..

فاجأ الجميع بصوت أقرب الى الملاينة :

ــ اذا انجبت منك ولدا .. فانى سأحرص على أن يكون السلطان من بعدى ..

ورقق من صوته فى ترغيب :

ــ ويكون لك كلمة مسموعة فى حكم البلاد ..

قالت عائشة :

ــ لا اجيد سوى شغل البيت !..

شاب صوته ما يشبه التذلل :

ــ يا عائشة .. لقد حللتك محل نفسى !..

فى لحظة أو أقل ، تبدل الأمر . لم يكن السلطان قد قال ما عنده . ولم تكن عائشة قد أبانت عن كل ما بنفسها ..

اتجه الخنجر المسموم الى غايته فى صدر السلطان . صرخت عائشة لآهته ، ولمرأى الدم . سقط السلطان عن الكرسى . تدحرج

على سلمات خمس ، تعلو به فوق الأرض . حدث هرج ومرج . لم يجر التثبت : من صوب الطعنة ، ولا من أين اتت ؟.. وهل هى وليدة اللحظة ، أم انها وليدة تخطيط وتدبير ؟.. وهل للفاعل شركاء ، أم أنه أقدم على فعلته النكراء بوازع من نفسه ؟.. غلبت الفوضى ، وانشغل الجميع بالجريمة الشنعاء ، فلم يتبينوا الفاعل ، ولا مصدر الطعنة القاتلة ..

تأمل النائب الكافل بحلقة العينين ، والفم المفتوح . فطن الى ما حدث ، فأعلن وفاة السلطان ..

وهذا آخر ما انتهيت اليه ..

تعدد مستويات الخطاب الروائي هو أول ما يلفت قارىء هذا العمل ، ويفسر ـ الى جانب عوامل أخرى ـ قبضته الآسرة على المتلقى .

فهناك ـ فى المحل الأول ـ الخطاب الرسمى الذى ينبع من السلطة ويرمى الى تثبيت أركانها ، وهو ما نجده فى كتابات كثير من المؤرخين ، ونجد محاكاة ساخرة له (بارودى) فى أجزاء كثيرة من الرواية .

وهناك ، ثانيا ، الخطاب الشعبى الذى يتواصل به الناس فى حياتهم اليومية ، ويقضون حوائجهم ، وهو خطاب أرضى ، محسوس ، بعيد عن المجردات ، وخال من الخطابة البلاغية التى تسم الخطاب الأول .

وفى « قلعة الجبل » صوتان يتجاوران ، بل يتحاوران ، ويترك المؤلف للقارىء أن يستخلص النتائج بنفسه ، دون أن يحاول التأثير فى رأيه ، ودون أن يزج بنفسه فى حومة الجدل ، وان كان من الممكن رغم ذلك ـ أن ندرك أين يقف : فالصوت الأول هو صوت الراوى الذى لا نعرف له هوية ـ ربما كان من مؤرخى العصر أو شهوده أو من صنائع السلطان خليل بن الحاج أحمد ، ولو أنه يخبرنا منذ البداية « أنا لم أرزق التمثل بين يدى أساس الدولة خليل بن الحاج أحمد والتحلى ـ فى حياته ـ بصحبته المنيفة » . هذا الصوت يجبهنا بقوله انه أشفق على سيرة السلطان من تشويه الموتورين ، وأنه تابع حكايته مع عائشة بنت عبد الرحمن القفاص من أولها الى آخرها ، فرأى أن من الأمانة أن يوردها على وجهها الصحيح ، وأن يذب عن السلطان أكاذيب الحاقدين ، وسهام الأعداء ، وأراجيف المرجفين . ومن ثم كتب هذا السجل الذى يبدأ بنزول السلطان خليل من قلعة الجبل ، ورؤيته لعائشة ، وينتهى باغتياله ـ لا ندرى بيد من ـ حين جاءته طالبة الأمان على بيوت الناس وحرمهم ، ورافضة أن تكون من حظاياه ، أو حتى زوجة له بعد أن أعياه الوصول اليها من غير هذا السبيل .

وعلى الوجه المقابل هناك صوت يشار اليه عادة بعبارة « قيل

أن .. » وهو صوت الاتهام الذى يسرد جرائم السلطان ، ويكشف النقاب عن مظالمه ومفاسده وجشعه ، ويدحض الاتهامات التى اقتص بها من الأبرياء ، ويلعب دور الجوقة التى تعلق على الحدث بينما يظل الصوت الأول عازفا مفردا (سولو) يكاد ينفرد وحده بالدفاع عن السلطان ، أو يتظاهر بذلك ، حيث ان دفاعه لا يخلو من نبرة تورية ساخرة ، كأنما ينطوى على شك فيما يقول . ولا يخلو الصوت الجماعى ، ايضا ، من نبرات شك فى موقف الهجوم ، وتبرير (فى بعض اللحظات على الأقل ، وخلافا لنية المتكلمين) لبعض أعمال السلطان .

لكن هذا المنهج ، رغم كل امكاناته الفنية التى احسن كاتبنا الانتفاع بها ، ينطوى على عيب جسيم لا سبيل لتفاديه ، ولا أحسب ان الرواية قد نجت منه : ذلك انه يؤدى الى جعل الشخصية الواحدة خيرا خالصا او شرا خالصا حسب المنظور الذى تنظر اليها منه . انك اذا اخترت مثلا ان تصدق ما يقوله السلطان ورجاله عن عبد الرحمن القفاص غدت شخصية هذا الأخير سوادا خالصا يخلو ، او يكاد يخلو من كل خير . واذا اخترت ان تصدق ما يقوله عنه جيرانه ومعارفه وأهله غدت شخصيته بياضا خالصا يخلو ، أو يكاد ، من كل شر . فزاوية النظر هنا هى الاطار المرجعى الأول والأخير ، لا تتيح لك أن ترى الشخصية ، كما هى فى الحياة ، مزيجا من الخير والشر ، ودرجات لا حصر لها من اللون الرمادى الذى يقترب ، فى بعض المواقف ، من البياض ، وفى مواقف اخرى من السواد .

حبكة الرواية بسيطة بما فيه الكفاية : فهى قصة الهاجس المستحوذ الذى يطلب ما لا ينال ، ويريد ان ينال غصبا ما ليس له شرعا ، ويحسب أن السلطان والقوة والمال والترف قادرة على شراء قلب المحب المخلص . وحول هذه الأزمة الشخصية تنعقد هالة من الأزمات التاريخية ، ويلتحم العام بالخاص لنخرج من الرواية بصورة فرد ، وصورة بلاط ، وصورة شعب ، وصورة عصر .

ينزل السلطان خليل من قلعة الجبل (التى تخبرنا كلمة تمهيدية انها بنيت حوالى عام تسع وسبعين وخمسمائة) فيرى وجها يفتنه هو وجه عائشة بنت عبد الرحمن القفاص بالشيخونية . وكما يحدث لبطل « الصهبة » يتركز معنى وجوده فى العثور على هذه المرأة المجهولة ، فيقتاد جنوده العشرات من النسوة والفتيات الى القلعة يطل عليهن السلطان من السور الشرقى .

ويرتد بنا محمد جبريل ــ هنا ــ الى نشأة السلطان وما يكتنفها من أقوال متضاربة ومزاعم يختلط فيها الحق بالباطل ، ويصف كيف صعد الى منصب السلطان ، والسلطنة لا تتم الا بدخول قلعة الجبل ، فهى رمز الحكم وشارته ، وهى أشبه بعين حجرية لا تطرف تطل ــ من علاها ــ على القاهرة وما تموج به من خلق ، ومن عدل وظلم ، ومن خير وشر ، ومن أمانة وغش ، ومن طهارة وفسق .

ويجلس السلطان خليل على سرير الملك ، ويملك الديار المصرية والشامية والحجازية ، وتفيض عليه الخلعة السوداء . ويرسم له الراوى ــ المدافع (بضربات فرشاة سريعة واثقة) صورة سيكولوجية وبدنية واضحة المعالم : فهو جميل الصورة ، معتدل القامة ، لولا عرج خفيف فى مشيته ، اثر ضربة سيف . وجهه يميل الى البياض ، وشعره أصفر ، وعينه بنية اللون . أما العين الأخرى فقد اطفأتها ضربة خنجر (لاحظ اللمسات الساخرة هنا ، وهى دليل آخر على ما أشرت اليه من ازدواج وجدانى فى موقف الراوى) . وهو ذو هيبة عظيمة ، يخشاه الجميع لعدله فيما يقول الراوى ، ولبطشه وبدوات طبعه وغدره فيما تقول أفعاله التى يتناقلها الناس .

ويزور السلطان قصر صاحب الشرطة ، الذى الزمه المرض فراشه ، فتقع عينه ــ بعد طويل بحث ــ على عائشة ، ويدخل بها الجند اليه فيطالعها السلطان على كرسى من ذهب ، مرصع بالدر والجواهر . وتخاطبه بجراة وثقة ، مخاطبة الند للند ، فلا يغضبه ذلك ــ وان أدهشه ــ حيث أن تلقائيتها ــ المناقضة للتكلف والمداراة فى أجواء القصور ــ جزء من جاذبية شخصها . ويعلم أنها متزوجة من شاب فقير يدعى خالد عمران ، نساخ فى سوق الوراقين . ويحاول اغراءها بأن تقيم فى قصره ولكنها ترفض ، فيعرض أن يلحق زوجها بوظيفة فى طباق القلعة .

وتعود عائشة الى أهلها ، ونعرف لمحة عن خلفيتها : فهى ابنة وحيدة ــ اختطف الطاعون اخويها فى ليلة واحدة ــ ودخلت احد الكتاتيب حيث تعلمت مبادىء القراءة والكتابة والدين ، ثم ألزمها أبوها البيت ، حتى جاء خالد عمران فطلب يدها .

ويقبل الجند السلطان على دكان المعلم الشربينى الذى يعمل الزوج لديه فيعرض عليه مقدم الجند ان يعمل فى خدمة السلطان . وحين يعتذر خالد بأنه من عامة الناس ، ولا طاقة له على خدمة

السلاطين ، يختطفه الجند وينقطع خبره فلا يدرى أحد اين سلك ، ولا اين ذهب .

ومرة أخرى يتخذ المؤلف من هـذه الواقعـة تكأة للارتداء الى الوراء ، والحديث عن خلفية خالد وتاريخه ، وما اتسم به من طيب السجايا مما اكسبه محبة زوجه والناس بعامة ، فاشتد بهم القلق والحزن على غيابه .

ويكبس الجنود بيت عبد الرحمن القفاص حاملين عائشة الى قلعة الجبل حيث يحدثها السلطان متلطفا . فتخبره أن زوجها غاب عن البيت منذ خمسة عشر يوما ، فيتظاهر بالاهتمام ويأمر صاحب شرطته أن يبحثوا عنه .

ويدعو السلطان الأب الى مجلسه فيعرض عليه أن يعمل فى القلعة ، ويعهد اليه بكل شئونها من مأكل ومشرب ومخازن ووسائل اقامة واعاشة ، ولكن الأب ــ فيما يقول جواسيس السلطان ورجاله ــ يقبل على ملذات الحياة ، ويهمل مصالح الخلق ، فيعذبه السـلطان حتى يموت فى الحبس ويدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه .

وهنا يتدخل الصوت الجماعى قائلا ان عبد الرحمن القفاص كان بريئا من كل هذه الاتهامات ، وأنه كان ــ كما عرفه سكان الشيخونية خلال جيرة طويلة ــ رجلا عفيفا زاهدا . وانما نكل به السلطان لأنه رفض أن تذهب ابنته للاقامة فى القلعة .

ومن الآن فصاعدا تنقلب أحوال السلطان فلا يتورع عن كل جريمة ممكنة لكى يحصل على هذه المرأة آلتى تأباه ، وتقيم على الاخلاص لزوجها الغائب وقومها ، حتى أنه يبطش بمحروس القليوبى ، الجزار بالحسينية وخال عائشة ، وبالشيخ عاصم ندا خطيب مسـجد شيخون ، وبالشيخ جلال القاياتى قاضى الشافعية ــ بعد تلفيق التهم الكاذبة لهم ــ وكل جريرتهم هى انهم رفضوا أن تلزم عائشة العيش فى القلعة ، والا تنزل الى القاهرة .

وتكثر فى الوقت ذاته الشائعات عن اختفاء خالد عمران وظهوره ، فيغدو اشبه بالأسطورة . انه المخلص الذى لا يدرى أحد متى يأتى ، او ما اذا كان سيأتى أصلا .

ويبطش السلطان خليل بالخليفة القاهر شمس الدين ، وهو اسم امير المؤمنين ولكنه فى الواقع سجين القلعة لا يغادرها ، لا يملك من

الأمر شيئا . ثم يبطش السلطان بخـوند جنـات ، أولى زوجاته واحظاهن عنده ، لأنها ـ كالخليفة ـ مالت الى انزال عائشة من قلعه الجبل واعادتها الى قومها فى حدرة الحنة .

ويتجمع الناس ـ العوام واهل السوق والزعر والحرافيش ـ حول قلعة الجبل مناشدين السلطان ان يطلق سراح عائشة ، فيفعل ذلك مؤقتا تهدئة للخواطر الثائرة ، وهو يضمر غير ما يظهر . وفى الوقت ذاته يظل خالد عمران على اختفائه ، مع تناثر الروايات عن رؤيته فى حارات وشوارع ودور ودكاكين داخل مصر والقاهرة . ويقال انه اكد أن عائشة لم تغب عن باله يوما ، وانه سيعود اليها عما قريب ليعيد أيام الهناءة والأمان .

ويبدأ السلطان ـ الذى ازداد طبعه سوءا بعدما رأى من ثورة العامة ونفار عائشة وهرب خالد ـ فى البطش بأعوانه وعماله ، ثم يسلطهم على العامة لكى ينكل كل من الفريقين بصاحبه فيضمن بذلك أن يضعف من شوكتهما معا ، ويضمن الا تجتمع مصالح الفريقين على راى واحد وغاية واحدة .

ويعمد الراوى الى الدفاع عن سلطانه فيقول : « كانت أحكامه ـ فى ظاهرها ـ قاسية ، ولكنه كان أحرص الناس على اجراء العدل . الأب يقسو على ابنائه ، وان اراد مصلحتهم ، وما فى خيرهم » . حجة الطغاة فى كل زمان ومكان .

ويأخذ الجند عائشة الى قلعة الجبل مرة اخرى فيثور العامة ، وتقوم الفتنة ، ويرميهم جند السلطان ـ من أسوار القلعة ـ بالمدافع والحجارة والمكاحل والمقاليع وغير ذلك من آلات الحرب . وتتمكن عائشة من الهرب من القلعة فلا يعثر عليها جند السلطان .

ويرسم السلطان باباحة مصر والقاهرة ثلاثة أيام للسلب والنهب ، وعقاب كل من خرج عن الطاعة من أولاد الناس والعوام . فيضـع الجند أسيافهم فى رقاب الناس ، وينهبون الدور ويغتصبون النساء ويلوطون الغلمان ، وتستحيل شوارع القـاهرة ميدانا للمعـارك والفوضى .

وتدنو هذه الملحمة الشخصية ـ التـاريخية ـ التخيلية من نهايتها حين يفاجأ السلطان بعائشة امامه وقد جاءته من تلقاء ذاتها ، لم يقبض عليها الجند ، لكى تسأله أن يوقف مذابح جنوده ، ويتقى

الله فى أرواح المسلمين واعراضهم . وتصر على رفضها أن تكون له ، فيقر فى ثورة غضب بأنه غيب زوجها ، وبطش بأبيها وخالها وكل من وقف فى طريق ارادته ، ويهددها بأن ينكل بها . ويحاول اغراءها ــ متذللا ــ بالزواج ، وان يكون السلطان لابنها منه من بعده ، وان تكون لها كلمة مسموعة فى حكم البلاد . ولكنها ترفض هذا كله . وفى هذه اللحظة يظهر من يوجه خنجرا مسموما الى صــــدر السلطان فيسقط صريعا . ولا ندرى من صوب الطعنة ، ولا من اين اتت ، وهل هى وليدة اللحظة أم انها وليدة تخطيط وتدبير ، وهل للفاعل شركاء ام انه اقدم على فعلته بوازع من نفسه . ايكون هو المخلص المنتظر خالد عمران ، بتدبير من زوجه عائشة ؟ وتسود الفوضى والهــرج والمرج ، ويعلن النائب الكافل وفاة السلطان . ويقول الراوى : « هذا آخر ما انتهت اليه » . وبكلماته هذه تنتهى الرواية .

هذه هى خطوط القصة ، قد تنقل أهم ما فيها من احــداث ، ولكنها لا تنقل شيئا من ثراء نسيجها ، وكثافة التفاصيل التى تنسج صورا حية للحياة اليومية فى الأحياء الفقيرة وفى قصور السلاطين على السواء ، كما لا تنقل البراعة التى يرسم بها كاتبنا شخصية سلطانه. ورغم كل جرائمه فاننا ــ وهذه معجزة الفن ــ نتعاطف معه فى ضعفه البشرى مثلما نتعاطف مع مكبث الذى يقوده طموحه المسرف الى الجريمة والطغيان . اننا نرى فى هذه العاطفة المستحوذة على السلطان كقدر محتوم لا نجاة منه ما يفسر ــ وان لم يبرر ــ ما يخوض فيه من دماء .

ولا يملك القارىء الا أن يتساءل : الا يحتمل أن تنطوى نفس السلطان ، رغم كل شروره ، على بذرة خير كانت تنتظر امراة من طراز عائشة لكى تجعلها تنمو وتذكو ؟ الا يجوز أن يصلحه حبها ــ لو انها آثرت أن تقبله ــ مثلما اصلحت شهر زاد من طبع شهريار الدموى ؟ الا يكون شوقه اليها طموحا نبيلا من شوق التراب الفانى الى الجوهر النورانى ؟ الا يكون طموحا محمودا الى الارتقاء من درك الشهوات الذى يتخبط فيه السلطان بين جواريه وغلمانه وخصيانه الى درج الحب الصادق الذى يسمو بنفس المحبوب ؟.

لكن هذه الأسئلة تصطدم باعتبار خلقى لا سبيل الى تجاهله هو أن عائشة زوجة رجل آخر على سنة الله ورسوله ، وانه لا يحــق السلطان ــ من ثم ــ ان يمد بصره اليها . وهنا نجد نموذجا للابهام

المعنوى الذى يزيد الرواية ثراء وخصبا ، ويجعلنا نضطر الى مشاركة الروائى والناس ادانة السلطان حتى ولو رق قلبنا لهذه العاطفة التى ربما كانت اول عاطفة صادقة نبض بها قلبه المتحجر . هى — فيما ارجح — عاطفة صادقة لأنه كان بامكانه ان يستغنى عن عائشة الكل من يحفل به قصره من زوجات وجوار ومحظيات فيهن — ولابد — من هى أبرع من عائشة جمالا ، واخبر بفنون الدل والاغراء . ولكن عواطفه انصرفت الى امراة من عامة الشعب وتعلقت بها مثلما يتعلق الكوكب بجاذبية الشمس لا يملك عنها حولا ، ولا يستطيع أن يخرج من المدار المرسوم له حتى ولو أراد .

ومرة اخرى يمكن أن يرد على هذا بأنه ليس عاطفة صادقة قدر ما هو طمع فيما يملكه الغير ، وجشع لا يعرف مدى ولا انتهاء ، اذ يحتمل الا تكون رغبته فى عائشة سوى نزوة مفاجئة تنقضى بانقضاء اشباعها ، وانه قد ينبذها — اذا نالها — نبذ النواة مثلما كان دون جوان يفعل بعشيقاته بعد أن يقضى منهن وطره . فغرور الرجل هنا — لا حبه الصادق — هو الذى يجعله يستميت فى السعى وراء المرأة التى ترفضه . وموقفه موقف عصابى مرضى وليس حبا صحيا بناء .

والنبرة الساخرة التى يتحدث بها الكاتب — وكأنما لسانه فى خده كما يقول التعبير الانجليزى — من أهم الأدوات التى ينقل بها موقفه الخاص ، وهو موقف الادانة للسلطان . انظر مثلا الى قوله عنه على لسان الراوى المدافع :

« ألم بأحكام الشريعة فى كل مسألة من مسائل الدنيا : البيع والشراء والحوالة والكفالة والاجارة والوكالة والمزارعة والمساقاة والقرض والرهن والنكاح والطلاق والصيد والذباحة والأطعمة والأشربة والحدود والديات » .

الا تذكرنا هذه القائمة الجادة — الهازلة فى آن بما يقوله صلاح عبد الصبور فى قصيدته العظيمة « حكاية المغنى الحزين » (من ديوان « تأملات فى زمن جريح » ، ١٩٧١) عن سادته الأماجد ، الأشاوس ، الأحامد ، الأحاسن ، زينة المدائن ، وانجم السارى ، ممن يزينون البلاط كما كانت مصر تزدان بمن يسيرون امورها عند وقوع كارثة ١٩٦٧ ؟ .

« الله ما اعظمكم ، وما ارقكم ، وما

انبلكم ، وما اشجعكم ، وما
اخبركم بالخيل والطعان والضراب والكمائن
والفتح والتعمير والتدمير والتحبير والتسطير
والتفكير والتخريب والتجريب والتدريب والألحان
والاوزان والألوان والبناء والفناء والنساء
والشراء والكراء والعلوم والفنون واللغات
والسمات ...
وباختصار
انتم هدية السماء للتراب الآدمى ،
نحن حفنة الأموات
وشارة على اقتدار الله ان يخلق امثالا من الفانين
« ليس على الله بمستنكر
ان يجمع العالم فى عشرين »

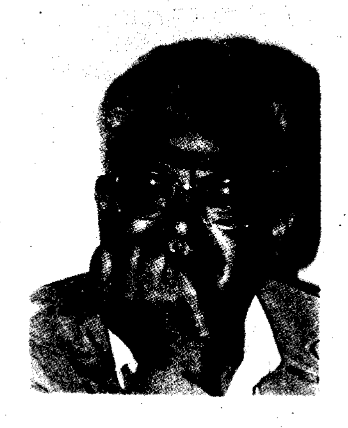
ويبقى فى النهاية ان نطرح هذا السؤال : اين تقع « قلعة الجبل » من تراث الرواية التاريخية فى مصر ؟ لقد قطعت هذه الرواية شوطا طويلا نحو النضج منذ كتب جرجى زيدان سلسلة روايات تاريخ الاسلام الى أن كتب فتحى امبابى « نهر السماء » (انظر مقالة محمد ابراهيم ابو سنة عن هذا العمل الأخير فى مجلة « ابداع » نوفمبر / ديسمبر ١٩٩٠) . وخلال رحلتها هذه عرفت عددا من علامات الطريق : « غادة رشيد » لعلى الجارم ، « سنوحى » لمحمد عوض محمد ، « ابنة المملوك » لمحمد فريد أبو حديد ، روايات نجيب محفوظ الفرعونية الأربع (حمدا لله أن قد عدل محفوظ عن مشروعه الباكر وهو كتابة أربعين رواية تاريخية تغطى تاريخ مصر ، على نسق روايات السير ولتر سكوت !) ، « أحمس بطل الاستقلال » لعبد الحميد جودة السحار ، « ملك من شعاع » لعادل كامل ، روايات فاروق خورشيد وعباس خضر المستوحاة من الملاحم الشعبية والسير الفولكلورية . وقبل هذه الأعمال كلها عملان متميزان ما زالا قادرين على مخاطبة العقد الأخير من القرن العشرين : رواية « على باب زويلة » لمحمد سعيد العريان ، وهى كما قال طه حسين فى مجلة « الكاتب المصرى » (ابريل ١٩٤٧) : « كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد ، و « الثائر الأحمر » لعلى احمد باكثير وهي تتخذ من ثورة القرامطة سبيلا لمناقشة الشيوعية

الحديثة ، وتتفوق كثيرا على روايته الاخرى ، الأذيع شـهرة ، « واسلاماه » .

لكن هذه الأعمال كلها تظل محكومة بحدود عصرها ، ولا يبقى من الآيات الفنية حقا وصدقا ــ فى رأيى ــ غير ثلاثة اعمال هى : « السائرون نياما » لسعد مكاوى ، « أضلاع الصحراء » لادوار الخراط ، « الزينى بركات » لجمال الغيطانى . و « قلعة الجبل » هى الرواية الرابعة التى تنضاف الى هذا الثالوث لكى تؤكد أن العقل الروائى المصرى قد بلغ درجة عالية من الحساسية الفنية ، والحس النقدى الناضج ، والقدرة على تمثل التراث لا استيحائه فحسب ، فى بدن واحد حى ، تجرى فى شرايينه الدماء ويسرى فى تضاعيفه نسغ الحياة ، وكانما الحاضر والماضى فلذة واحدة حية مقتطعة من لحم الواقع ، إناسه يحبون ويكرهون ، يلذون ويألمون ، يشبعون ويجوعون، يرتوون ويظمأون ، ينامون ويأرقون ، يسعون فى الأسـواق ، ويضطربون فى غمار الحياة غائصين فيهـا حتى الركبتين ، ولـكنهم يستطيعون أيضا ان يحلموا ، وان يتطلعوا الى النجوم ، وأن تخامرهم ــ مثل كليوباترا شكسبير فى محظاتها الأخيرة ــ أشواق علوية .

انما الرواية التاريخية عند سعد مكاوى ، والخراط ، والغيطانى ، وجبريل شجرة ضاربة الجذور فى التربة ولكنها تحمل بذور الخصب والنماء ، وتومىء ــ فى مستقبل ليس بالبعيـد ــ الى مزيد من التجريب والريادة والاقتحام ..

د. ماهر شفيق فريد



محمد جبريل

● من مواليد الاسكندرية عام ١٩٣٨ .

● يعنى فى اعماله الروائية والقصصية بعالمين .. عالم يستلهم فيه التراث كما فى « امام آخر الزمان » و « من أوراق ابى الطيب المتنبى » و « قلعة الجبل » ، وعالم مساحته حى بحرى الاسكندرية ، كما يتمثل فى « قاضى البهار ينزل البحر » و « الصهبة » .. وغيرها .

● يؤمن بوحدة الفنون وأن كل فن بوسعه أن يفيد من الفنون الأخرى ، وقد أفاد فى روايته بالفعل من التقطيع والفلاش باك السينمائى ، والتقطيع فى الفن التشكيلى والهارمونى الموسيقى فضلا عن اللغة التى تقترب احيانا من لغة الشعر .

● حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٥ .

● عمل تسع سنوات رئيسا لتحرير جريدة « الوطن العمانية » .

هــذه (الـروايــة

هذه واحدة من الروايات التى ترسخ تيار الرواية الجديدة فى الأدب العربى فهى تمثل حلقة من الروايات التى استخدمت التاريخ واقعا ، والواقع تاريخا .

فالقلعة تتحدى عالما يسيطر على المدينة . لتخرج منها المرأة التى تتحدى رجل القلعة ، وتصبح المدينة هى الوطن . المرأة هى الأم والشعب ، والهدف المقدس الذى يتحرك الجميع فى النهاية من اجله .

ومن هنا يصبح الزمان والمكان قناعين لعالم ممتد فى الحاضر . فى القلعة يتسيد محمد جبريل فنه القصصى متحكما فى الشكل لتكتمل دائرة عالمه الروائى الذى تجلى فى مجمل ابداعه . ولتكون القلعة فريدة ، لا فى اعمال الكاتب الروائية فحسب . انما فى تيار الرواية الحديثة متميزة بتراثها الفنى واخلاصا للتجربة الروائية ، ولأرض هذا الوطن .

قلعة الجبل .. لبنة جديدة فى الرواية الحديثة .. فلا تفوتك قراءتها .